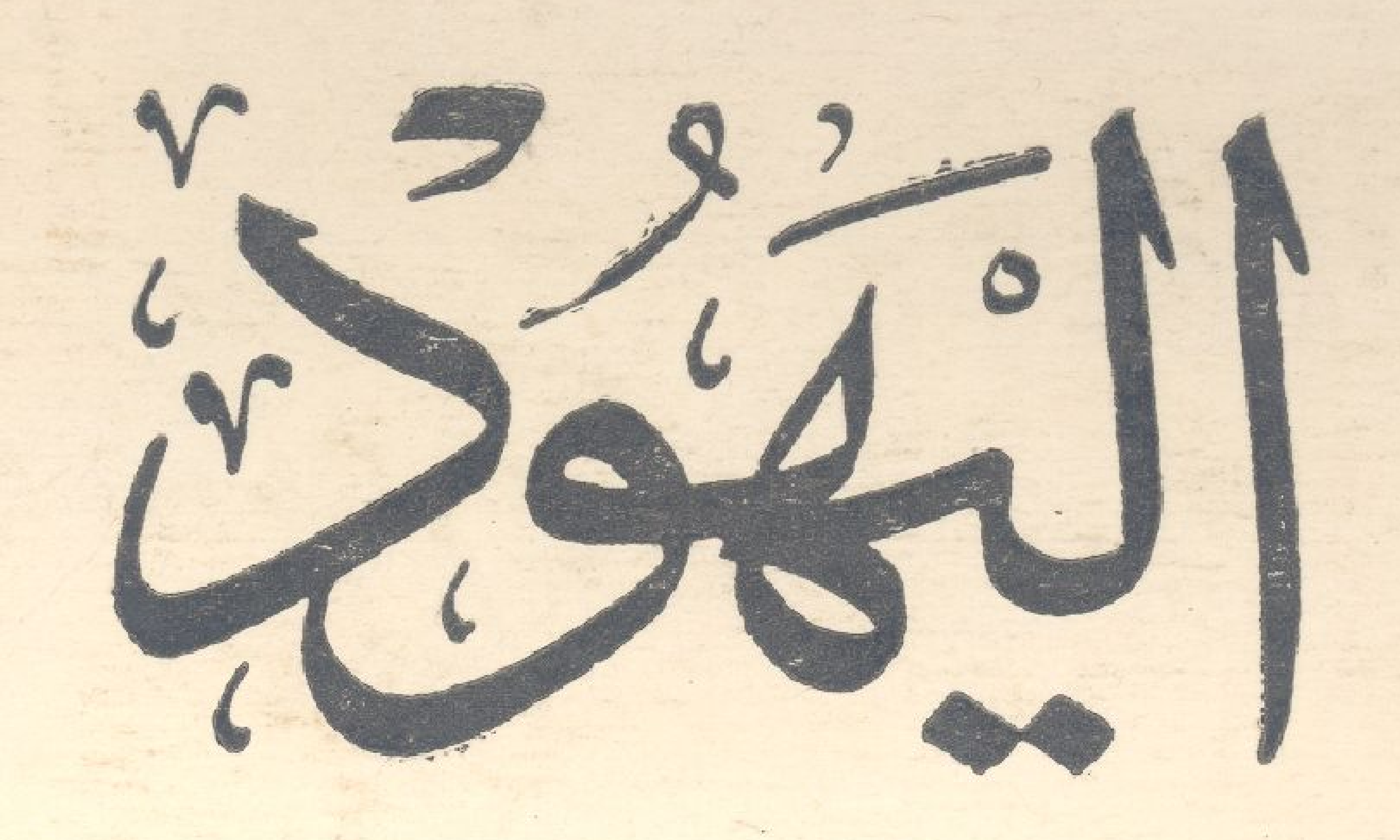


اليهود

فى تاريخ الحضارات الأولى

« لم تكن فلسطين غير بيئة مختلفة
لليهود . . . لا يستحق اليهود أن
يعدوا من الأمم المتمدنة » (لوبون)

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

نقله إلى العربية

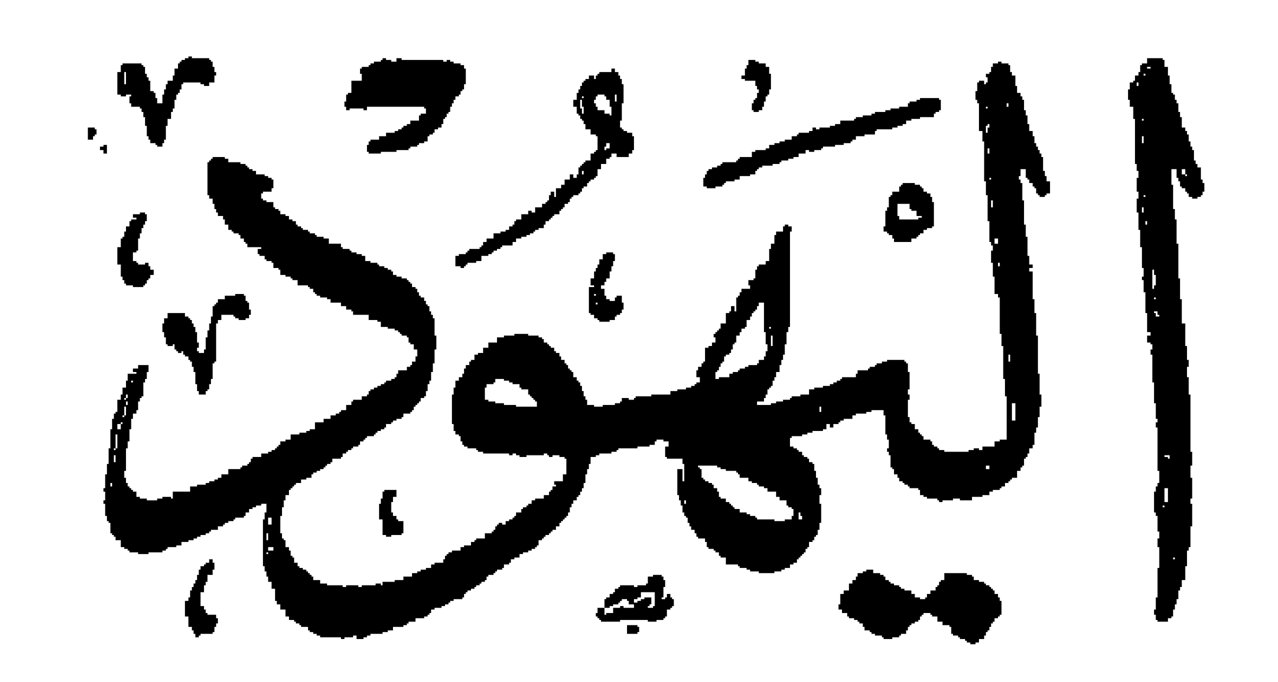
عادل زعيتر

عيسى البابى الحلبى وشركاه



اليهود

في تاريخ الحضارات الأولى



اليهود

في تاريخ الحضارات الأولى

« لم تكن فلسطين غير بيئة مختلفة
لليهود . . . لا يستحق اليهود أن
يعدوا من الأمم المتمدنة » (لوبون)

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

نقله إلى العربية

عادل زعيتر

عيسى البابي الحلبي وشركاه

مُقدّمة المترجم

كان الفيلسوفُ العلّامة غوستاف لوبون قد وَضَعَ كتابه الجليل « حضارة العرب » في سنة ١٨٨٤ ووَضَعَ كتابَه الجليل الآخر «حضاراتِ الهند» في سنة ١٨٨٧ ، ونقلنا هذين السِّفْرَيْن إلى العربية فأصبحت ترجمتُهما لدى القراء .

ومما حَدَثَ في سنة ١٨٨٩ أن أخرج العلّامةُ لوبون كتاباً ضخماً ثالثاً سمّاه « الحضارات الأولى » ، ولم يكن هـذا السِّفْر في درجةِ سابقيْه أهميةً ، وكنا نَنْقُله إلى العربيـة ، مع ذلك ، لو لم يكن مُعْظَمه خاصًّا بقدماء المصريين والكلدانيين والآشوريين ، فقـد قَلَبَت أعمالُ الحَفْر في مصرَ والعراقِ معارفَنا في حضارات تلك الأمم رأسًا على عَقِب فأصبح ما في كتاب « الحضارات الأولى » من المعارف عنها محتاجاً إلى إعادة نظرٍ وتجديدِ تأليف كي يتساوى هو وما انتهى إلينا من حضارات تلك الأمم بعد وضعه .

بيد أن كتاب « الحضارات الأولى » ذلك يشتمل على جزء صغيرٍ بالغ الخُطُورة خاصٍّ باليهود ، ففي هـذا الجزء تحرَّرَ العلامة لوبون من نِير التقاليد الموروثة في الغرب ، كما تحرَّر في غيره من كتبه ، فانتهى إلى نتـائجَ مهمةٍ إلى الغـاية .

انتهى إلى أنه « لم يكن لليهود فنونٌ ولا علومٌ ولا صِناعةٌ ولا أيُّ شيء تقوم به حضارة ، واليهودُ لم يأتوا قطُّ بأية مساعدة مهما صَغُرَت في شَيْد المعارف البشرية ، واليهودُ لم يجاوزوا قَطُّ مرحلةَ الأمم شِبْـه المتوحشة التي ليس لها تاريخ » .

انتهى إلى أن « قدماء اليهود لم يجاوزوا أطوارَ الحضارة السُّفْلَى التى لا تكاد تُمَيَّز من طور الوحشية ، وعند ما خرج هؤلاء البَدَوِيُّون الذين لا أثرَ للثَّقافة فيهم من باديتهم ليستقروا بفلسطينَ وجدوا أنفسَهم أمام أمم قوية متمدنة منذ زمنٍ طويل فكان أمرُهم كأمر جميع العروق الدنيا التى تكون فى أحوال مماثلة ، فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخسِّ ما فى حضارتها ، أى لم يقتبسوا غيرَ عيوبِها وعاداتها الضارية ودعارتها وخرافاتها » .

انتهى إلى أن « تاريخ اليهود الكئيبَ لم يكن غيرَ قِصَّة لضروب المُنْكرات ، فمِن حديث الأَسَارَى الذين كانوا يُوشَرون بالمِنْشار أحياءً أو الذين كانوا يُشْوَوْنَ فى الأفران ، فإلى حديث المَلِكات اللائى كن يُطْرَحْن لتأكلهنَّ الكلاب ، فإلى حديث سكان المدن الذين كانوا يُذْبَحُون من غير تفريقٍ بين الرجال والنساء والشِّيب والوِلْدان » .

انتهى إلى أن « تأثيرَ اليهود فى تاريخ الحضارة صِفْرٌ . . . وأن اليهود لم يستحقُّوا بأيِّ وجهٍ أن يُعَدُّوا من الأمم المتمدنة » .

انتهى إلى أن « اليهود قد ظلُّوا حتى فى عهد ملوكهم ، بَدَوِيِّين أفّاقين مفاجئين مُغِيرين سَفّاكين مُولَعين بقِطَاعهم مندفعين فى الخِصَام الوحشيِّ ، فإذا ما بَلَغَ الجَهْدُ منهم رَكَنُوا إلى خيالٍ رخيصٍ تائهةً أبصارُهم فى الفضاء كسَالَى خالين من الفكر كأنعامهم التى يَحْرُسونها » .

انتهى إلى أن « فلسطين ، أو أرضَ الميعاد ، لم تكن غيرَ بيئة مُخْتَلَقة لليهود ، فالباديةُ كانت وطنَهم الحقيقيّ » .

انتهى إلى أنك « لا تَجِدُ شعباً عَطِلَ من الذوق الفنيِّ كما عَطِلَ اليهود . . .

فهيكلهم المشهور (هيكلُ سليمانَ) أُقيم على الطِّراز الآشوريِّ من قِبَلَ بنَّائين من الأجانب ... ولم تكن قصور هذا الملك غير نُسَخٍ دنيئةٍ عن القصور المصرية أو الآشورية » .

انتهى إلى أنه « لا أثرَ للرحمة فى وحشية اليهود .. فكان الذبحُ المُنَظَّم يَعْقِبُ كلَّ فتح مهما قلَّ ، وكان الأهالى الأصليون يُوقَفُون فَيُحْكَم عليهم بالقتل دفعةً واحدةً فَيُبَادُون باسم يَهْوَه من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السنِّ ، وكان التحريق والسلب يلازمان سفكَ الدماء » .

ويُلَخِّص العلامة لوبون مِزَاج اليهود النفسيَّ فيقول : « إنه ظلَّ قريباً جِدًّا من حال أشدِّ الوحوش ابتدائيةً على الدوام ، فقد كان اليهود عُنُدًا مندفعين غُفَّلًا سُذَّجاً جُفَاةً كالوحوش والأطفال ، وكانوا عاطلين ، مع ذلك ، من الفُتُون الذى يَتَجَلَّى فيه سِحْرصِبَا الناس والشعوب ، واليهودُ الهَمَجُ إذا وُجِدُوا من فَوْرهم مغمورين فى سواء الحضارة الآسيوية المُسِنَّة الناعمة المفسدة أضْحَوْا ذوى معايبَ مع بقائهم جاهلين ، واليهود أضاعوا خِلَال البادية من غير أن ينالوا شيئاً من النموِّ الذهنيِّ الذى هو تُرَاث القرون » .

« ويُعْرِب حِزْقِيَال عن ذلك الرأى فى سِفْره حين يَذْكُر ظهورَ الشعب اليهوديِّ الحقير وأوائلَه الهزيلة وما عَقَبَ استقرارَه بفلسطينَ من الحُمَيَّا فيقول مخاطباً تلك الأمةَ العاقَّةَ قائلًا باسم يهوه :

« وفى جميع أَرْجاسكِ وفَوَاحِشِكِ لم تَذْكُرى أيامَ صِبَاكِ ... وإذْ كنتِ لم تَشْبَعِي زَنَيْتِ مع بنى آشور ولم تَشْبَعِي ... فلذلك أَقْضِي عليكِ بما يُقْضَى على الفاسقات وسافكات الدماء وأَجْعَلُكِ قَتِيلَ حَنَقٍ وَغَيْرةٍ » .

واليهودُ مع عَطَلِهم من الفنِّ والصِّناعة عَطَلًا تامًّا يَجِدُ لهم لوبون آداباً غنية ، ولوبونُ يقول مع ذلك : « وليست تلك الظاهرةُ خاصةً ببنى إسرائيل فقط ، فهى تُشَاهَدُ لدى جميع الأمم الساميَّة ، ولا سيما العربُ الذين كانوا قبل الإسلام ذوى شِعْر بعيد الصِّيت حقًّا ، على أن الشعر ، مع الموسيقى ، فنٌّ جميع الأمم الفطرية ، والشعرُ ، مع بُعْدِه من التقدم موازياً لتقدم الحضارة ، تَجِدُه يَضِيقُ أهميةً وتأثيراً كلما ارتقت الأمم ، فقد اقتضت الحضارةُ قروناً طويلة لاختراع الآلة البخارية واكتشاف سُنَن الجاذبية مع إمكان ظهور قصائدَ كالأوذيسة والإلْياذة وأغانى أُوسْيان فى أدوار الجاهلية » .

وعند لوبون أن الشريعة اليهودية بأَسْرِها ليست إلا وجهاً بسيطاً للنظام الكلدانىِّ ، وأن معتقداتِ اليهود هى من أساطير البابليين المُعَقَّدَة التى لم ينتحلْها عالَمُ الغرب المتمدنُ إلا بعد أن تحولت بمرورها من خلال روح الساميين البسيطة ، وقد تطورت هذه المعتقداتُ فى الغرب تطوراً ابتعدت به عن أصولها فأخذت شكلًا لا يكاد يَمُتُّ إلى الساميَّة بصِلَة ، وفى ذلك يقول لوبون : « فما كان لمبادئَ كهذه أن يَتَمَثَّلَها ذلك الشعب اليهودىُّ الصغير المتعصب الأنانىُّ الصَّلِفُ المغرور المفترس » ، وبسبب ذلك يقول لوبون : « ولما يَحِلَّ الوقت الذى تَرْسُم فيه يد الإنصاف تكوينَ تلك المعتقدات الكبرى ، ولا يكاد فَجْرُ ذلك الزمن يلوح ، ولا يزال المؤمنون والملحدون يُقِيمون بدوائرَ من التصديق أو الجحود على غير برهان ، ولا يزال الرجل المعاصر يَئِنُّ تحت عِبْء الوِراثة الثقيل ، ولا تزال متماسكةً المؤثِّراتُ الإرثية التى حَصَرَت نفوسَ الغرب فى قوالبَ منذ نحو ألفىْ سنة ، وإن أخذت هذه المُؤَثِّرات تنحلُّ ، فقد ترك

الماضى فى نفوسنا آثاراً يجب أن تمرَّ عليها أمواجُ الزمان غيرَ مرة حتى تمحُوَها ».

« ... نعم إن الشعب اليهودىَّ لم يكن غيرَ ذى نصيب ضئيل جدًّا فى شَيْد ذلك البناء القديم ، غير أن القرون بلغَت من تجسيم شأنه الظاهرِ مالا تُبْصِر معه سوى أناس قليلين ، حتى بين أشدِّ الناس ارتياباً ، تحَرَّروا من سلطان الماضى فاستطاعوا أن يضعوا بنى إسرائيل فى مكانهم الصحيح ».

« ... ومع إمكان جهل الرجل المُثقَّف العصرىِّ لتاريخ الحضارات العظيمة التى أينعت فوق أرض الهند جهلًا تامًّا تجِدُه لا يجْرُؤُ على الاعتراف بأنه يجْهَل أعمال شِمْشُونَ أو مغامراتِ يونانَ الذى التقمه الحُوت ».

ويبحث لوبون فى وقائع اليهود فيجدها هزيلةً لُحْمَتُها المشاغبات وسَدَاها ضروبُ التوحش والمُنكَرات ، وفى ذلك يقول : « وحوادثُ تافهةٌ كتلك لا يُعْنَى بها التاريخ ، وإذا ماعُنِيَ بها التاريخُ فلأسباب مستقلة عن أهميتها ، ومن ذلك أن حِصَار عِصابةٍ من البرابرة لمدينة تَرْوادة الصغيرةِ واستيلاءهم عليها قبل الميلاد باثنى عشرَ قرناً مما غدا حادثاً ذا بال فى تاريخ العالَم ، لأن أُومِيرُس تَغَنَّى به . لا من أجْل نتائجه ».

« وما أتى به مؤرخو اليهود من تدوين لتلك الحوادث عَقِبَ وقوعها مع تجسيمٍ عظيم هو دون ماصنعته الكنيسة النصرانية بعد ذلك .

« ومن يَقْرَأْ سِفْرَ صموئيل وسِفْرَ القضاة بشىء من روح النقد يُبْصِرْ دَوْرَ العَنَتِ الذى جاوزه بنو إسرائيل فى استقرارهم بفلسطين ، غير أن هذه الأقاصيص نفسها إذا ما نُظِرَ إليها من خِلال أبخرة الحماسة الدينية أَلْقَت فى النفوس وَهْماً قائلًا إن ذلك الفتح ساطعٌ مُعْجِز ».

« وظَلَّت أوربة النصرانية زمناً طويلًا تَقْرَأ كتبَ مؤرخى اليهود بالروح التى أرادها هؤلاء المؤرخون ، وما وَدَّه أولئك المؤرخون من تَمْوِيهٍ على معاصريهم ارتضاه أمثالُ أُوغُوسْتِن وبسكال وبُوسُوِيه وشاتْو برِيان أكثر من ارتضاء ذلك الشعب الجاهل المتعصب الذى حاولوا إقناعه » .

ويستولى الرومان على فلسطين « وتُحَيِّر لَهْجَة الشعب اليهودى الفارغةُ دولةَ رومة العُظْمى نفسَها ، وتقتصر على احتقاره مع أنها كانت تَعْلَم قدرتَها على سَحْق وَكْر المتعصبين المشاغبين ذلك عند الضرورة ، ولم تُعَتِّم فوضى ذلك الشعب الصغير المزعج وفسادُه وضوضاؤه أن استنفدت صبرَ تلك الدولة العُظْمى فعزَمَت على إبادته لكيلا تَسْمَع حديثاً عنه ، ففى سنة ٧٠ من الميلاد استولى تيطس على أُورَشَلِيم وجعلها طُعْمَةً للنيران وبدئ بتشتيت شَمْل اليهود » .

وفى هذا الكتاب يذهب لوبون إلى أن بنى إسرائيل كانوا من الساميين ، أى من العِرْق الذى كان ينتسب إليه الآشوريون والعرب ، ولكن بنى إسرائيل قد اكتسبوا بانفصالهم من ذلك العِرْق تلك المساوئَ التى وَجَدها لوبون فيهم ، فظَلَّ العربُ بريئين من مثلها ، ومع ذلك يرى لوبونُ فى كتابه « حضارة العرب » أن تلك القرابة تقوم على تجانس اللغات وبعض الصفات الجُثْمانية وأن من الممكن أن يجادَل فى ذلك ، فقد قال فى ذلك السِّفر الجليل : « ومهما تكن وَحْدة تلك الصفات التى نجادل فى قيمتها ومهما تكن أهمية تلك القرابة السامِيَّة التى لا نَجْزِم بها نراها تَرْجِع على فَرْض وجودها إلى ما قبل التاريخ ، وقد كانت تلك الأمم السامِيَّة على اختلافٍ وتباين منذ أقدم عصور التاريخ كما دَلَّت عليه الروايات » ، فيكون ذهابُ لوبون إلى أن بنى إسرائيل

والعرب من أَرُومَةٍ واحدة فى كتاب « الحضارات الأولى » من قبيل التَّجَوُّز إِذَنْ .

وفى كتاب « حضارة العرب » يقول لوبون : « ولا جَرَمَ أن الشَّبَه قليلٌ بين العربيِّ أيام حضارته واليهوديِّ الذى عُرِفَ منذ قرونٍ بالنفاق والجُبْنِ والبُخْلِ والطمع ، وأن من الإهانة للعربيِّ أن يقاس باليهودى ... وأن العربيَّ ، مع إقراره لليهوديِّ بالقرابة ، أولُ من يَحْمَرُّ وجهُه خجلًا منها » .

وكيف لا يكون من الإهانة للعربيِّ أن يقاس باليهودى « وتاريخُ اليهود الكئيبُ لم يكن غير قِصَّةٍ لضروب المنكرات . . . وأنه لا أَثَرَ للرحمة فى وحشية اليهود » مع أن « الأمم لم تَعرِف فاتحين راحمين متسامحين مثلَ العرب ولا ديناً سَمْحاً مثلَ دينهم » كما قال لوبون .

وكيف لا يكون من الإهانة للعربى أن يقاس باليهودى ومبدأُ اليهود كما فى سِفْر يَشُوعَ : « أَهْلَكُوا جميعَ ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدِّ السيف ... وأَحْرَقوا المدينةَ وجميعَ ما فيها بالنار » ، ومبدأُ العرب كما جاء فى وصية أبى بكر الصديق : « لا تَخُونُوا ولا تَغُلُّوا ولا تُمَثِّلُوا ، ولا تقتلوا طفلًا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تَعْقِروا نخلاً ولا تَحْرِقُوه ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا لمَأْكَلَة ، وسوف تَمُرُّون بأقوامٍ قد فَرَّغُوا أنفسَهم فى الصوامع فدَعُوهم وما فَرَّغُوا أنفسَهم له » .

وكيف لا يكون من الإهانة للعربى أن يقاس باليهودى « وقدماء اليهود لم يجاوزوا أطوارَ الحضارة السُّفْلَى التى لا تكاد تُمَيَّزُ من طَوْر الوحشية ... وتأثيرُ اليهود فى الحضارة صِفْر ... وإن اليهود لم يستحقوا بأىّ وجهٍ أن يُعَدُّوا من

الأمم المتمدنة » مع أن « العرب مدّنوا أوربة ثقافةً وأخلاقاً » كما قال لوبون ، ولوبون قد تمنّى أن يكون العربُ قد استولَوْا على العالم ، ومنه أوربة ، لما كان فيهم من نبيل الطبائع وكريم السّجايا ، ولوبونُ هو القائل : « إنه كان يصيب أوربة النصرانية ، باستيلاء العرب عليها ، مثلُ ما أصاب إسبانية من التقدم والارتقاء والحضارة الزاهرة الرفيعة تحت راية النبيّ العربيّ ، وكان لا يَحْدُث في أوربة ، التي تكون قد هُذِّبَتْ ، ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية وملحمة سان بارْتِلْمِي ومظالم محاكم التفتيش وكلٍّ ما لم يَعْرِفْه المسلمون من الوقائع التي ضَرَّجَت أوربة بالدماء عِدَّةَ قرون » .

وكيف لا يكون من الإهانة للعربيّ أن يُقَاس باليهودي « وأنت لا تَجِدُ شعباً عَطِلَ من الذوق الفنيّ كما عَطِلَ اليهود » مع أن « الأمةَ العربية قد رَغِبَتْ في تحقيق خيالاتها فأبدعت تلك القصورَ الساحرة التي يُخَيَّلُ إلى الناظر أنها مؤلفةٌ من تخاريمَ رُخاميَّةٍ مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة ، ولم يكن لأمةٍ مثلُ تلك العجائب ولن يكون . . . فلا يَطْمَعَنَّ أحدٌ في قيام مثلها في الدور الحاضر الماديِّ الفاتر الذي دخل البشرُ فيه » كما قال لوبون .

***

تلك هي حال الشعب اليهوديّ الذي كان له بعضُ السلطان في فلسطينَ حيناً من الزمن فأَجْلاه الرومان عنها فتفرّقَ في الأرض فلم يقتبس من الأمم التي عاش شتيتاً بينها غيرَ أخسِّ عيوبها ، شأنُ أجداده كما يُثْبِت ذلك سلوكُه الوحشيُّ الأخير في فلسطين ، ولا نبحث هنا في العوامل التي حفزت إنكلترا إلى شد أَزْره وتوطيد دعائمه في بلد عربيٍّ لم يكن ملكاً لليهود ، ولا في المظالم التي اقترفها

الإنكليز وغيرهم من الأوربيين والأمريكيين مدة ثلاثين سنة ولا يزالون يقترفونها إمعاناً فى اضطهاد العرب وتثبيتاً لأقدام أجلاف اليهود فى سورية الجنوبية « فلسطين » ممثلين فى أهلها العرب مأساةً أندلسية أخرى ، لأن ذلك يُخْرِجنى من نِطَاق الكتاب ، ولعل القراء يجدون فى هذا الكتاب ما يُدْحَض به زَعْمُ اليهود الزائفُ القائل إن فلسطينَ حقٌّ تاريخىٌّ لهم والمشتملُ على أعظمِ دَجَلٍ بشرىٍّ وأفظعِ تضليلٍ سياسىٍّ .

وهنا نَذْكُر أن فى الكتاب أموراً لا تلائم بعض المعتقدات ولا نوافق لوبونَ عليها ، ولكنَّ هذه الأمورَ ليست من صميم الموضوع ، وهى على العموم من قبيل الاستطراد البعيد من هَدَف الكتاب الأصلىّ القائم بوجهٍ خاصّ على بيان عَطَل اليهود من نصيبٍ فى تاريخ الحضارة ، وعلى ما فى اليهود من المساوئ العِرْقِيَّة التى قَلَّما يُوصَمُ بمثلها قوم ، وعلى أن اليهود شعبٌ غير صالح طرأ على فلسطين التى لم تكن له بلداً أساسيًّا قط .

« نابلس » عادل زعيتر

الفصل الأول

البيئة والعرق والتاريخ

١ – نصيب اليهود فى تاريخ الحضارة

لم يكن لليهود فنونٌ ولا علومٌ ولا صِناعة ولا أيُّ شيء تقوم به حضارة ، واليهودُ لم يأتوا قَطُّ بأية مساعدةٍ مهما صَغُرَت فى شَيْد المعارف البشرية ، واليهودُ لم يجاوزوا قَطُّ مَرْحَلَةَ الأمم شِبْه المتوحشة التى ليس لها تاريخ ، وإذا ما صارت لليهود مدنٌ فى نهاية الأمر فلِما أدَّت إليه أحوالُ العيش بين جيرانٍ بلغوا درجةً رفيعةً من التطور ، بَيْدَ أن اليهود كانوا غايةً فى العجز عن أن يقيموا بأنفسهم مدنَهم ومعابدَهم وقصورهم فاضْطُرُّوا فى إبَّان سلطانهم ، أى فى عهد سليمانَ ، إلى الاستعانة بالخارج ، فجلَبوا منه لذلك الغرض بَنَّائين وعُمَّالًا ومتفننين لم يكن بين بنى إسرائيلَ قِرْنٌ لهم .

وعلى ما كان من هُزَال تلك القبيلة الساميَّة الصغيرة الكئيبة فى نشوئها العقلىِّ مَثَّلَت بالدِّيانات التى صدرت عن معتقداتها دورًا بلغ من الأهمية فى تاريخ العالم ما يتعذر معه عدمُ الاكتراث لها فى تاريخٍ للحضارات ، ويتألف جزءٌ أساسىٌّ فى التربية من دِراسة فِتَنها الأهلية وتُرَّهات أنبيائها وسلاسلِ أنساب ملوكها الغامضة ، ومع إمكان جهل الرجل المُثَقَّف العصرىِّ لتاريخ الحضارات

العظيمة التى أينعت فوق أرض الهنـد جهلًا تامًّا تجدُه لايَجْرُؤ على الاعتراف بأنه يجهل أعمال شِمْشُون أو مغامرات يونان (يونس) الذى التقمه الحوت .

وَسَيَبْدُو ، لارَيْبَ ، ذلك الشأنُ الكبير الذى مَثَّله الفكر اليهودىُّ فى تاريخ أوربة المتمدنة منذ نحو عشرين قرناً من المسائل الجالبة للنظر لدى كتّاب المستقبل ، فإذا ما انقضت بضعةُ آلافٍ من السنين ولَحِقَتْ حضارتُنا بالحضارات السابقة فى لُجَّة المـاضى وغَدَت فنونُنا وآدابُنا ومعتقداتنا من الذِّكْرَيات وصار يُبْحث فى أمورنا كما نَبْحث اليـوم فى أمور المصريين والآشوريين ، أى بمـا لاتُدْرَك بغيره حوادثُ التاريخ من الهدوء الفلسفىِّ وتُفَسَّر ، عَدَّ المؤرخ ، لا شكَّ ، من الحوادث التى تستوقف النظر خضوعَ أمدن الأمم فى قرونٍ طويـلةٍ لديانةٍ مشتقة من معتقداتِ قبيـلةِ بَدْوٍ مبهمةٍ ، وتَذَابُحَ شعوب قوية فى جميع ميادين الغرب والشرق من أَجْل هذه المعتقدات ، وقيامَ دولٍ عظيمة وهَدْمَ دولٍ عظيمة أخرى فى سبيل المعتقدات المذكورة ، وهذا إلى قِلّة عدد حوادث التاريخ الغريبة التى تُعْرَض على تأملات مُفَكِّرى المستقبل كذلك الحادث .

ومن السهل أن نُبْصر أن مفكرى المستقبل أولئك سيكونون على شىء من الارتياب ، فبما أنهم يكونون طليقين من الأحكام المُقَرَّرة المهيمنة علينا ، وبما أنهم يكونون أكثرَ اطلاعاً منا على الروابط التى تَرْبط المـاضىَ بالحاضر وعلى السُّنَن العامة لتطور الأمور ، فإنهم يحكمون فى ما يساورنا بعيونٍ تختلف عن عيوننا لارَيْب ، فتبدولهم المسائلُ ، التى نراها معقدةً فى الوقت الحاضر ، بسيطةً إلى الغاية لِما يعلمون من رَدِّها إلى العناصر التى تتألف منها ، ومما لا مِراء فيه أن الدّياناتِ لاتُعَدُّ إذ ذاك من صُنْع رجلٍ واحد ، بل تُعَدُّ وليدةَ ألوفِ الرجال ، بل تُعَدُّ نسيجَ

أفكارِ أحدِ الشعوب واحتياجاته ، ومما لامِراءَ فيه أن مؤسسى الدّيانات لايُعَدون إذ ذاك غيرَ أناسٍ من ذوى النفوس العالية تقَمَّص فيهم المَثَلُ الأعلى لإحدى الأمم وأحد الأدوار تقمصاً غيرَ شعوريّ ، فيُرَى فى النصرانية والإسلام ما يرتبطان به ، من خِلال الدين اليهوديّ ، فى الأجيال البعيدة حيث نشأت الآلهة الآسيوية ، ولا يُجْهَل آنئذٍ أن الأديان تطورت فى غضون القرون على الدوام مع احتفاظها باسم واحد ، وأن من الوهم الخالص أن يُعْزَى فى كل وقت إلى موجديها فى الظاهر ما اضْطُرَّت إليه من التحولات لتلائم جديدَ الاحتياجات ، وأن الدين إذ كان ، كالنُّظُم والفنون ، عُنوانَ مشاعرِ إحدى الأمم فإنه لا ينتقل من شعبٍ إلى آخر من غيرأن يتغير ، وأن الهندوس والصينيين والترك ، مثلًا ، إذا أمكنهم أن يعتنقوا ديناً ذا اسم واحد كالإسلام فإن هذا الدين بانتقاله من شعبٍ إلى آخرَ يعانى من التحول العميق مثلَ ما تعانيه الفنون واللغة والنُّظُم ، وذلك ليناسب مشاعرَ الأمم التى انتحلته ، وفى ذلك الحين يُنْظَر بتلك العين ؛ لا رَيْب ، إلى الزِّنْدِيقِ المعاصر الذى يقتصر علمه على عمله السهل فى بيان النواحى الصبيانية من كل دين ، وإلى المؤمن المعاصر ذى البصيرة النَّيِّرَة فى الموضوعات العلمية الذى ينحنى أمام الخُرافات الصبيانية ، أَجَلْ ، إن الإنكار سهلٌ كالتصديق ، ولكن الذى يُطالَب به كاتبُ المستقبل هو أن يَفْهَم ويفسر على الخصوص ، وستغيب ، إلى الأبد ، الأزمنةُ التى يرى المؤرخُ فيها اضطرارَه إلى المحاكمة وإلى الحَنَق ، فهنالك لايكون التاريخُ من صنعِ الأديب ، بل من صنع العالِم .

وسيختلف تاريخُ اليهود والأديان التى صدرت عنهم عن التاريخ الذى لايزال مدوناً فى الكتب اختلافاً كبيراً لا رَيْبَ ، وبيان الأمر أن مؤسس

النصرانيــة ، كما صَنَعَته القِصَّةُ ، كان أقلَّ الساميين ساميَّــةً ، فلم يكن من غير سببٍ أن كُفِرَ به وأن صُلِب ، وأن هذا المتهوسَ الكبيرَ مَثَّلَ فى التاريخ دوراً كان يتعذر عليه أن يُبْصِره ، فأوجبت أحوالٌ مستقلةٌ عنه حاملةٌ لاسمه ظهورَ آمال للعالَم عند مالاح نجمه ، وليس فى الإحسان العظيم العامِّ والتشاؤم القاتم اللذين قام عليهما مذهبه فى البَدَاءة ، كما قام عليهما مذهبُ بُدَّهَة (بوذا) قبله بخمسمائة سنة ، شيء من الساميّة فما كان لمبادئَ كهذه أن يتمثلها ذلك الشعبُ اليهوديُّ الصغيرُ المتعصبُ الأنانيُّ الصَّلِفُ المغرور المفترِس ، وإنما نَبَتَت هذه المبادئُ على مبدأ التوحيد المحليِّ الذى مالت إليه ، على الدوام ، روحُ الساميين ، من أنصاف البرابرة كاليهود والعرب [1] ، الفطريةُ الحائرة .

ولمَّا يَحِلَّ الوقت الذى تَرْسُم فيه يد الإنصاف تكوين تلك المعتقدات الكبرى ، ولا يكاد فَجْر ذلك الزمن يلوحُ ، ولا يزال المؤمنون والملحدون يقيمون بدوائرَ من التصديق أو الجحود على غير برهان ، ولا يزال الرجل المعاصر يَئِنُّ تحت عِبْء الوِراثة الثقيل ، ولا تزال متماسكةً المؤثِّراتُ الإرثية التى حَصَرَتْ نفوسَ الغرب فى قوالبَ منذ ألفى سنة ، وإن أخذت هذه المؤثِّرات تنحلُّ ، فقد ترك الماضى فى نفوسنا آثاراً يجب أن تَمُرَّ عليها أمواجُ الزمان غيرَ مرةٍ حتى تَمْحُوَها .

وعلى ما تراه من نشوء المذهب العقليِّ الحديث الذى لا يكاد يَتَفتح فوق

---

(١) قصد المؤلف بالعرب هنا أعراب العرب ، أو العرب فى العصر الإسرائيلى أو الجاهلى على الأكثر ، كما يشهد بذلك كتابه « حضارة العرب » العظيم الخالد الذى شهد فيه بأن العرب ضربوا بسهم كبير فى الحضارة فمدنوا أوربة علما وأدبا وأخلاقا وتسامحا الخ . وقد نقلنا هذا الكتاب الجليل إلى العربية فطبع للمرة الثانية سنة ١٩٤٨ (المترجم)

أرض أوربة لم تزل أوربة نصرانيةً إلى درجة لا يدركها الباحثون الواقفون عند حدِّ الظواهر ، وما يَصْدُر عن حرية الفكر من مفاجآتٍ يُثْبِت وحدَه ، بما يوجبه من مقاومة ، عُمْقَ الأُسُسِ النصرانية التى لم تنفكَّ مجتمعاتُنا تقوم عليها .

نَعَمْ ، إن الشعب اليهوديَّ لم يكن غيرَ ذى نصيبٍ ضئيلٍ جدًّا فى شَيْد ذلك البناء القديم ، غير أن القرونَ بلغت من تجسيمِ شأنه الظاهر ما لا تُبْصِر معه سوى أناسٍ قليلين ، حتى بين أشدِّ الناس ارتياباً ، تحرروا من سلطان الماضى فاستطاعوا أن يضعوا بنى إسرائيلَ فى مكانهم الصحيح .

وقد يُشَكُّ فى شِدَّةِ وطأة الماضى علينا عند ما يُرَى أقلُّ مفكرينا سذاجةً ، كسيورينان ، يكتبون مثلَ الأسطر الآتية فى أمر اليهود ، قال رينان : « لا يَجِدُ صاحبُ الروح الفلسفية ، أى الذى يبالى بالأصول ، غيرَ ثلاثةِ تواريخَ ذاتِ نفعٍ من الطراز الأول فى ماضى البشرية وهى : تاريخُ اليونان وتاريخُ بنى إسرائيلَ وتاريخ الرومان ، فمن هذه التواريخ الثلاث يَتألف ما يمكن تسميتُه بتاريخ الحضارة ، ما دامت الحضارةُ نتيجةَ تعاونٍ متعاقب بين بلاد اليونان واليهودية وروما » .

ولمَّا تَحِنِ الساعةُ التى تُعَدُّ فيها تلك الأسطر دليلاً على التأثير القاطع لماضى الإنسان وتربيته فى حالته الروحية ، أَجَلْ ، يتخلص المؤلف المشار إليه من ذلك التأثير فى بعض الأحيان لا رَيْب ، ولكن لا لطويل زمن ، وهو يتخلص من ذلك عند ما يُبَيِّن أن النظام اليهوديَّ بأَسْرِهِ ليس إلا وجهاً بسيطاً للنظام الكلدانىِّ وأن أساطيرَ البابليين المعقَّدة لم ينتحلها عالَم الغرب المتمدن إلا بعد أن تحولت بمرورها من خلال روح الساميين البسيطة ، وهو لا يتخلص من ذلك

عنـد ما يَعْزُو إلى اليهود شأناً عظيماً ويَطْوِى كشحاً عن أمم كالمصريين والـكلدانيين كانت ذاتَ أثرٍ عظيم فى تاريخ تقـدم الحضـارة على حين ترى أثرَ اليهود فيه تافهاً إلى الغاية .

لم يجاوِز قدماء اليهود أطوارَ الحضارة السُّفْلَى التى لا تـكاد تُمَيَّزُ من طور الوحشية ، وعنـدما خَرَجَ هؤلاء البـدويون ، الذين لا أثَرَ للثقّـافة فيهم ، من باديتهم ليستقروا بفلسطينَ وَجَدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدنة منـذ زمن طويل فـكان أمرُهم كأمر جميع العروق الدنيا التى تـكون فى أحوال مماثلة ، فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليـا سوى أخسِّ ما فى حضارتها ، أى لم يقتبسوا غيرَ عيوبها وعاداتها الضارية ودَعارتها وخُرَافاتها ، فقَرَّبوا لجميع آلهة آسية ، قرَّبوا لعشتروتَ ولبعل ولمُولَكَ ، من القرابين ما هو أكثر جدًّا ممـا قرَّبوه لإله قبيلتهم يَهْوَه العبوسِ الحقودِ الذى لم يَثِقُوا به إلا قليلاً لطويل زمنٍ على الرغم من كل إنذار جاء به أنبياؤهم ، وكانوا يعبُـدُون عُجُولاً مَعْدِنِيَّة ، وكانوا يَضَعُون أبناءهم فى ذُرْعان مُحْمَرّة من نار مُولَك ، وكانوا يَحْمِلُون نساءهم على البِغـاء المقدَّس فى المَشَارف .

وأثبت اليهود عجزَهم التامَّ العجيب عن الإتيان بأدنى تقـدمٍ فى الحضارة التى اقتبسوا أحطَّ عناصرها ، واليهودُ ، بعد أن جمعوا ثرَوَاتٍ وَفْقَ غرائزهم التجارية القوية ، لم يَجدُوا بينهم بَنَّائين ومتفننين قادرين على شَيْدِ مبان وقصور فاضطرُّوا إلى الاستعانة على ذلك بجيرانهم الفنيقيين على الخصوص كما تدلُّ عليـه التوراة ، واليهودُ قد اقتصرت معارفهم على تربيـة السوائم وعلى فَلْح الأرض ، وعلى التجارة بوجهٍ خاصّ .

وما كان فَلَاح اليهود ليدوم غير هُنَيْهَة مع ذلك ، فقد أسفرت غرائزهم فى النهب والسلب ، وقد أسفر تعصبهم ، عن عدم احتمال جميع جيرانهم لهم ، فلم يَشُقَّ على هؤلاء الجيران أن يستعبدوهم ، ثم إن اليهود عاشوا عَيْشَ الفوضى الهائلة على الدوام تقريباً ، ولم يكن تاريخهم الكئيب غيرَ قصةٍ لضروب المنكرات ، فمن حديث الأَسَارَى الذين كانوا يُوشَرُون بالمِنشار أحياء أو الذين كانوا يُشْوَوْن فى الأفران فإلى حديث المَلِكات اللائى كنَّ يُطْرَحن لتأكلهن الكلاب فإلى حديث سكان المدن الذين كانوا يُذْبحون من غيرِ تفريقٍ بين الرجال والنساء والشِّيب والوِلدان ، فما كان الآشوريون ليُبْدُوا ضَرَاءً أشدَّ من ذلك .

والبؤسُ الأسود الذى صُبَّ من فَوْرِه على بنى إسرائيلَ هو الذى حالَ ، لا رَيْب ، دون انحلالهم التام وأدَّى إلى محافظتهم على وَحْدتهم العجيبة ، وما أُوحى به إليهم دَوْماً من كُرْهٍ عميق لمختلف الأمم التى اتصلوا بها صانهم من الزوال بانصهارهم فيها ، وما حدث من سَحْقِ الدول المجاورة إياهم ، ومن استعباد الدول الآسيوية العُظْمى لهم فى كلِّ حين ، ومن استرسالهم فى الفِتَن الداخلية الدائمة ووقوعهم فى داء الفوضَى العُضَال عند استردادهم ظِلاًّ من الحرية ، أوجبَ ظهورَ أحوالٍ لا تَعْرِف الروحُ البشرية معها سوى وساوس القنوط لِما لا يكون لديها من عوامل الأمل ، فهنالك كان يظهر أولئك المتهوسون وأولئك المتعصبون الراجفون ذوو النفوذ العميق فى نفوس الجموع على الدوام ، فما كان لأمةٍ من العَرَّافين والمُلْهَمِين والمجاذيب مثلُ ما كان لبنى إسرائيل ، وبنو إسرائيلَ لم يَظْهَر فيهم من النوابغ غيرُ الأنبياء والشعراء .

وكان الأنبياء والشعراء يعترفون إلهاماتِهم من مصدرٍ واحد ، وهؤلاء وأولئك

إذ كانوا يعيشون فى جوٍّ واحد من المُحَرِّضات الدماغيـة الدائمة بَدَت سِمَاتُ هذا الجوِّ فى جميع آثارهم .

وإذا عَدَوْت العهدَ القديم وَجَدْت بنى إسرائيلَ لم يؤلفوا كتاباً ، والعهدُ القديم هـذا لم يشتمل على شىء يستحقّ الذكر سوى ما جاء فيـه من بعض الشعر الغِنائىِّ ، وأما ما احتواه من أمور أخرى فيتألف من رُؤًى أناسٍ متهوسين ومن أخبارٍ باردة وأقاصيصَ داعرةٍ ضارية .

وإذا عَدَوْتَ القرآن ، على ما يحتمل ، لم تَجِدْ كتاباً نال من الحُظْوة فى العالَم كذلك الكتاب ، فالحقُّ أن التوراة والقرآن هما الكتابان اللذان كان لهما فى الدنيا من القُرَّاء ما لم يَتَّفق لكتابٍ آخر ، والحقُّ أن التوراة والقرآن كانا أكثرَ الكتب تأثيراً فى النفوس ، وقد استلهمهما أعاظمُ الفاتحين ، وبفعلهما انقضَّ الغرب على الشرق ، وباسمهما قامت إمبراطورياتٌ عظيمـة وهُدِمَت إمبراطورياتٌ عظيمة أخرى .

وما للتوراة من نفوذٍ عجيب فَيُعَدُّ من أبرز الأمثلة على شأن الأوهام الكبير فى تاريخ الأمم ، والواقع أنه كان لهـذا الكتاب حظٌّ مدهشٌ لتلاوته من قِبَل ملايين البشر الذين رأى كلٌّ واحد منهم ما أراده فيـه ، لا ما وَجَدَ فيـه بالحقيقة ، ولن يَحْدُث مثلُ هـذا الحادث النـاشىء عن الخيـال المُشَوَّه على ذلك القياس الواسع فى تاريخ العـالم لا رَيْب ، وما الصَّفَحات التى عَرَفَت أجيال الآدميين المتعاقبةُ أن تَجِدَ فيهـا أَسْمَى مبادئ الأخلاق إلا أخبـارُ ما يتألف منـه تاريخ اليهود من العَهارة والذبح ، ومن حِيَـلِ يعقوبَ وزناء بنات لُوط وسِفاحِ داودَ والبِغاء فى المشارف وضروب التقتيل بلا رحمةٍ وما إلى ذلك من أنبـاء ذلك الشعب

المتوحش التافهة تُعَلِّمَ الشعوبُ النصرانية منذ ألفى سنة الطبيعةَ الحقيقية لإلٰهها القادرِ على كلِّ شىء ، ونحن إذا ما رَجَعْنا إلى ما هو أبعدُ من ذلك رأينا أن النظام الكلدانى الكونىَّ القائلَ بالخَلْقة فى سبعة أيام وبآدمَ وحواءَ وبالجنة وبالطوفان وسفينة نوح هو الذى يُغَذِّى أذهان أجيال الغرب منذ قرون كثيرة ، وكان لا بُدَّ من جُهْد خارق للعادة يأتى به خيالُ الشعوب الآرية لتعرف هذه الشعوبُ إلٰهَهَا الحليم العامَّ من خِلال يَهْوَه الجبارِ العبوسِ الذى هو معبودُ بنى إسرائيلَ الكئيبُ ، هذا الطاغوتَ الذى ما انفكَّ يطالب بالقرابين والمُحْرَقات واللحم المشوىِّ والدمِ ، وغَدَتِ الخرافاتُ الصبيانية أو القبيحة التى وضعها كاتبو التوراة (لِيُعَلِّموا قوماً من الجُهَّال أن إلٰههم يَحْكُم بينهم رأساً فيُكافئهم ويجازيهم طورًا بعد طورٍ على وجهٍ واضحٍ والتى لم يكن لها غيرُ أثرٍ يسيرٍ فى كُفْران اليهود فرَفَض أحدُهم أيوبُ مبدأَها الأساسىَّ رَفْضَ الآمرِ الناهى) قاعدةً للأديان التى ارتضاها الغرب مدةَ عشرين قرناً فعَدَّها أناسٌ مثلُ سان أُوغُوسْتان وغَلِيلو ونيُوتُن وبَسْكال حقيقةً خالصة .

وإنى ، حين أُلاحظ مثلَ تلك الحوادث ، أَصِلُ مستنتجاً إلى أن الأوهام تُمَثِّل فى تطور الأمم دوراً عظيماً لا مبالغةَ فى أهميته .

ولا أُعالجُ فى هذا الكتاب تاريخَ الأديان التى سيطرت على الغرب منذ نحو ألفَىْ سنة وتكوينَ هذه الأديان لِما يضيق به صَدْرُ كتابٍ كهذا الكتاب ، ولا أبْحَث ، إذَنْ ، فى سلسلة الأحوال التى استطاع بها الشعبُ اليهودىُّ ، الذى هو أكثر الناس تمرداً على مبادئ عِرْقه البسيطة الكبرى ، أن يَنْشُر هذه المبادئ فى العالَم ، ولا أُبَيِّن ، إذَنْ ، أن النصرانية لم تكن حادثاً مفاجئاً خلافاً

لمَا يُعَلَّم ، وأنها ترتبط بسلسلة من التطورات التدريجيــة فى الزَّون الـكلدانىّ القديم وفى أطوار الدِّيانات الآرية الفطرية القديمة ، وإنما أقتصر على بيانى نصيبَ اليهود فى تاريخ الحضارة .

والآن يمكننا أن نُلَخِّص هذا الفصلَ بأن نقول إن تأثير اليهود فى تاريخ الحضارة صِفْرٌ وإنه واسعٌ من النـاحية الُخلقيــة ، وإذا كانت البشرية لا تزال سائرةً وراء الأوهام على الخصوص وجب علينا أن نعترف بأنه خَرَجَ من صَدْرِ اليهود وَهْمٌ من أشدِّ ما ســاد العالَمَ هَوْلًا ، فقد خَضَعَ الغرب لسلطانه نحو ألفى سنة وسيظل خاضعاً له عِدَّة قرون لا رَيْب ، ولا يزال يُمَثِّلُ المبادئ التى جاء بها نجَّارٌ فى قريةٍ صغيرة من بلاد الجليل أقوى ملوك الأرض ، ذلك الممثـلَ الذى تُعَدُّ مراسيمُه خاليــةً من شائبة الخطأ والذى يُذْعِن لسلطانه ثلاثُمائة مليونٍ من الناس .

واليهودُ لِمَا كان من نفوذهم المذكور غـيرِ المباشر فى العـالَم نُخَصِّص لهم صَفَحاتٍ قليـلةً فى تاريخ الحضـارات الأولى وإن لم يستحقوا أن يُعَدُّوا من الأمم المتمدنة بأىّ وجهٍ .

٢ — البيئة والعرق

كان بنو إسرائيلَ من الساميين ، أى من العِرْق الذى كان ينتسب إليـه الآشوريون والعرب .

ومن المُقَرَّر اليومَ أن بلاد العرب الوسطى والشمالية كانت مَهْدَ الساميين ، ولـكن بينما ظلَّ مُعْظَم الساميين منتشرين فى جَنوب جزيرة العرب هاجر فريقٌ منهم إلى الشمال مُوغِلًا فى بلاد بابل حيث كان السلطـانُ لحضـارة السُّومِريين

والأكَّاديِّين ، فأقاموا بها من الزمان ما أُشْبِعُوا فيه من تلك الحضارة ، ثم كَثُرَ عددهم فهاجروا من جديدٍ فى أدوارٍ مختلفة فتقدموا نحو الشمال أكثر من قبل وتقدموا نحوَ الغرب .

والساميُّون الذين بَقُوا فى بلاد العرب هم أجدادُ الشعب العربى ، والساميون الذين مَرُّوا من مَوْطِن الحضارة فى الفرات الأدنى وانتشروا فى جميع آسية السابقة هم الآشوريون والإسرائيليون .

ولم تَثْبُت إقامة أجداد بنى إسرائيل بما بين النهريْن من أحاديثهم التى جاء فيها نبأ خروج إبراهيم من مدينة أُور فى كَلْدَة فقط ، بل ثبتت أيضاً بالآثار التى ظَلَّت باقيةً فى معتقداتهم وطبائعهم من دِيانة الشُّومريِّين والأكَّاديين وعاداتهم .

وفيما كان ساميُّو الجنوب ، أى الأهالى العرب ، يحافظون على عبقرية عِرْقهم النَّقِيِّ من كلِّ تأثير أجنبيّ فلا يزالون يَبْدُون لنا مثالَ أولئك البَدَويِّين ذوى المبادئ البسيطة والعبادة القليلة التعقيد والطبائع القطرية الثابتة التى نتمثلها وَفْقَ ما جاء فى سِفْر التكوين من الأوصاف ، كان ساميُّو الشمال يُعَقدون نظامَهم الكَوْنيَّ فيُثْقلون عبادتَهم بالشعائر والجزئيات فينتحلون طائفةً من الآلهة المجهولة فى البادية ويَشِيدُون المُدُن ويَضَعون مختلفَ النُّظُم ويحاولون تأسيسَ أممٍ مُنَظَّمة قوية على غِرَار الأمم التى بَهَرَتهم فنونُها وعلومها فَقَلَبَت خيالَهم .

والعربُ فى إبَّان سلطانهم الكثير الاتساع وفى عهد حضارتهم العظيمة ظَلُّوا فى مبادئهم العامة وعبادتهم أبسطَ من الآشوريين والفنيقيين واليهود مع ذلك ، والإسلامُ ، بعد كلِّ شيء ، هو الدين الوحيدُ الوثيقُ التوحيد الذى جاء به الساميُّون ، وهو الدين الوحيد الخالِى من أىِّ أثرٍ لوَثَنِيّ ، وهو الدين الذى

يرفض الأنصابَ رفضاً تامًّا ·

والله في سُمُوِّه وجلاله وروحه هو خلاف يَهْوَه الضارى الذى لم يَكُنْ بِغَيْرَته وغضبه وهُزَال انتقامه غير أخٍ صغيرٍ لمُولَك وكامُوش ·

ومحمدٌ ، حين قال بالنظام الكَوْنيّ اليهوديّ ، لم يقل في الحقيقة بغير نظام قدماء الكلدانيين الكَوْنيّ ، ووَجَدَت مبادئُ الساميين المبهمة جسداً في تلك المذاهب المادية المُعَيَّنة التى لم يكونوا مخترعين لها والتى لولاها لتعذر عليهم أن يكونوا ذوى هَيْمَنة على روح الآريين الإيجابية التصويرية ·

وهكذا يُثْبِت ما يشاهَد من الفرق العميق بين سامي الجنوب وسامي الشمال أن سامي الشمال ابتعدوا عن مثال عِرْقهم الأصليّ لاتصالهم الطويل بأممٍ أرقى منهم كثيراً ، وتثبت قصةُ التوراة ، وتُثْبِت بأحسنَ من ذلك آثارُ المعتقدات الكلدانية الواضحة والنظام الكَوْنيّ المقتبس من بابلَ ، أن تلك الأمم التى أقام ساميُّو الشمال بينها هى الأمم السُّومِريَّة والأكَّادِيَّة ، أى الآدميُّون الذين استقروا منذ القديم بسهول الفرات الأدنى ·

وبنو إسرائيلَ ، بعد أن تركوا أولئك ، أقاموا بوادى الأُرْدُنِّ القليل الأهمية في الظاهر ، وذلك في أحوالٍ بالَغَ مؤرخوهم في روايتها ·

ولم يَجُلْ بنو إسرائيلَ في البحر كما كان يجول جيرانُهم الفنيقيون ، وذلك لأنهم لم يكادوا يكونون سادةً للساحل ، وكان قد جاء من إقْرِيطش ، على ما يُظَنّ ، شعبٌ غيرُ ساميٍّ يُعْرَف بالفلسطينيين فَمَلَكَ الساحلَ واستوطنه بنشاط ، واليهود لم يملكوا من الساحل لطويلِ زمنٍ سوى القسم الممتد من يافا إلى رأس الكَرْمل ، وهناك يقع سهلُ شارُون العجيبُ الذى تمتدُّ مروجه وحصائدُه إلى البحر ، غير

أن الشاطئ نفسه رملى قليل الصلاح لإنشاء مرفإ فيه .

ولم تكن مجاورة البحر هى التى جعلت امتلاك فلسطين أمراً نافعاً ، ولا خصب فلسطين وحده هو الذى كان عظيماً عندما كانت ذات غابٍ لم تقطع تماماً كما فى أيامنا ، وإنما كانت فلسطين إحدى طرق العالم القديم الرئيسة كبابل ، ولكن على درجةٍ أقل من درجة بابل ، فكان يتألف من أوديتها الضيقة الطريق البرية الوحيدة بين مركزى حضارة العالم الكبيرين ، بين العراق ومصر ، فيتصل أحد هذين المركزين بالآخر بتلك الطريق فيتبادلان بها محصولاتهما أيام السلم ويسوقان بها جيوشهما أيام الحرب .

وكانت مجدو مفتاح تلك الأودية فى الجنوب ، وكانت قادش مفتاحها فى الشمال ، وأعارت تانك المدينتان من اسميهما كثيراً من المعارك المشهورة الدامية .

ولم يكن ذلك الوضع المتوسط غير ذى تهلكة ، فأمة إسرائيل الصغيرة إذ قامت بين نينوى المرهوبة ومصر القوية وكانت تستند إلى إحداهما لمقاومة الأخرى كانت تشترك فى الصراع فى الغالب فتسحق فيه نهائياً .

ولكن القوافل المثقلة بالنسائج والحلى والتبر والعاج المشذب كانت تجوب فلسطين بلا انقطاع فى فواصل الحروب فلا يدع الإسرائيلى ، الماهر فى التجارة فى كل زمن والطامع فى الربح ، تلك الثروات تجاوز أرضه من غير أن يحتفظ بشىء منها لنفسه .

وحق المجاوزة هو مصدر الرخاء الرئيس الذى كان ينمو فى الغالب وبسرعةٍ فى اليهودية ، وكان منبع الزرابى الجميلة والنسج الثمينة والثياب الزاهية والحلى اللامعة والمرصوفة الحجارة ، التى كانت تشتهى أبناء يعقوب على الدوام

فيَرْفَع الأنبياء عَقِيرَتهم ضدَّها ، هو ذلك الوضعَ المتوسطَ وأولئك السماسرةَ اليهودَ الذين غَدَوْا مَدِينين لموقع البلد الذى سَكَنُوه .

وروحُ اليهود التجاريةُ التى هى آيةُ قومهم الكبرى نشأت ، أو اشْتَدَّت على الأقلِّ ، بالدور الذى كان عليهم أن يُمَثِّلوه فى القرون الخالية بين آسية ووادى النيل وبمشاهدتهم القوافلَ الكثيرةَ تَمُرُّ من طُرُقهم ناقلةً من بُقْعَة إلى أخرى نفائسَ الحضارتين اللتين كانتا أرقى حضارات العالم وألطفَها .

ثم إن فلسطين ، كإقليم وكإنتاجٍ ، كانت من البِقَاع المُفَضَّلة فى آسية الغابرة ، فهى إذ كانت مستورةً بفروع لُبْنَان بَدَتْ جامعةً لجميع الفصول ولمحاصيل البِقَاع الأخرى بفضل اختلاف مرتفعاتها .

وفيما كنتَ ترى تحت ذُرَى الثلج اللامعةِ منحداراتٍ مُغَطَّاةً بالغاب والمراعى كنتَ تشاهد فى السهول حقولاً خصيبةً مُنْبِتَةً للكَتَّان والشعير والبُرّ .

وخِصْبُ فلسطينَ فى القرون القديمة كان مشهوراً ، فقد بَهَرَت العِبْرِيين عند ما خَرَجوا من جزيرة سِيناءَ الجديبةِ ، وكان رُوَّادُهم يأتونهم بما يثير الحماسة من وصْفٍ لتلك البُقْعَة « التى تجرى فيها جداولُ من لَبَن وعسل » فيُرُونهم نماذجَ من أثمارها اللذيذة وقُطُوفِ عِنَبها العظيمة التى لا يستطيع الرجلُ الواحد أن يَحْمِل واحداً منها .

وكان يتألف من شجر العنب والتين والزيتون أهمُّ مصادر ثروة البلاد ، فأكْثَرَت التوراةُ من ذكرها .

وكانت جميعُ الأشجار المثمرة تَنْبُت فى المُنْحَدَرات الكثيرة المتموجة فى كلِّ ناحية من نواحى البلاد الممتدة بين بلد الجليل الباسم وشواطئ البحر الميت .

واليوم أسفر قَطْعُ الغابِ وإهمالُ الإدارة الإسلاميـة (العثمانيـة) وهَوْلُ الأعراب النَّهَّابين عن امتداد رمال الصحراء إلى الأراضى ودخولِ رَخَاء الماضى فى عِدَاد الذِّكْرَيَاتِ ، مع أن يَدَ الإنسان فى القرون القديمة كانت تُغْنِى عن بُخْلِ الطبيعـة فى تلك الأماكن ، فـكان الرِّىُّ المصنوع يَمُنُّ على الأرض بما تُعْطِى به مالا تُعْطِيـه لِعـدم المـاء ، فـكانت جميـع فلسطينَ ، تقريباً ، تشابه بطَرَائهـا وخِصْبها ، الواحاتِ الساحرةَ التى لا تزال تَنْشَأُ على ضِفاف السيول المُتَوجهةِ متدحرجةً نحوَ البحر الميت أو نحوَ البحر المتوسط .

وعَرَف بنو إسرائيلَ أن يستفيـدوا من تلك البُقْعـة السعيدة ، وكان بنو إسرائيل زُرَّاعاً ماهرين ، وبنو إسرائيلَ لم يَحْـذِقوا شيئاً غيرَ هذا ، وهم إذْ كانوا عاطلين من أىِّ فنٍّ ومن أى علمٍ ومن أية صِناعة ، وهم إذ لم يزاولوا التجارة إلا كوسطاءَ ، وَجَّهوا عنايتهم إلى حقولهم وإلى مواشيهم .

وتَجِدُ كتبَهم المقدسةَ حافلةً بالنعوت الرِّعائيـة وبالمقايسات والأمثلة المقتبسة من حياة الفلاحين والرُّعاة ، وكان لأولئك القوم شعورٌ بالطبيعة إلى درجة بعيدة ، وأراد مؤلف سِفْر الملوك أن يوجه نظرنا إلى كثير من أمثال سليمان ونشائده فقال : « وتَـكَلَّمَ فى الشجر من الأَرْز الذى على لُبْنانَ إلى الزُّوفَى التى تَخْرُجُ فى الحائط وتَـكَلَّم فى البهائم والطير والزَّحَّافات والسمك » .

ولم يَمَّحِ الساميُّ البـدوىُّ حتى بفعل القهر والعادة ، وهو الذى لم يغـادر صحارَى جزيرة العرب إلا قاصداً سهولَ العراق المُحْرِقة ، وهو الذى أبصر فى مصرَ أراضىَ مستويةً تَقْطَعُها القَنَواتُ من أرض جاسان ، وهو الذى بَهَرَته أماكنُ فلسطينَ المختلفة ، وتلألُها الضاحكة ومحاصيلُها المتنوعة .

وإليك كيف يُنْبِئُ النبيُّ إرْمِيا بخلاصهم من إسارة بابل :

« هكذا قال الربُّ : إنى أَبْنِيكِ بَعْدُ فَتُبْنَيْنَ يا عذراءَ إسرائيل ! ... تَغْرِسِينَ بَعْدُ كُرُوماً فى جبال السامرَة فيَغْرِس الغارسون ويتسكرون » .

« فيأتون ويُرَنِّمون فى مُرْتَفَع صَهْيُون ويَجْرُون إلى جُود الرَّب إلى البُرِّ والسُّلاَف والزَيْت وأولادِ الغنم والبقر » .

وظَلَّ بنو إسرائيل قوماً من الزُّرَّاع والرُّعاة حتى بعد صِلَتهم الطويلة بالحضارة الكلدانية الساطعة ، حتى بعد إقامتهم بمصر ، وما فَتِئَت العاداتُ القديمة التى اتفقت لهم فى المراعى الابتدائية الواسعة والطبائع الساميّة البسيطة تستحوذ عليهم ، ولم تؤد المُؤَثِّرات الأجنبية التى أبصرناها فى طبائعهم وديانتهم ، فيختلفون بها عن إخوانهم عرب البادية ، إلى غير تغيير سطحىّ فيهم من حيث النتيجةُ .

وبَقِىَ بنو إسرائيلَ ، حتى فى عهد ملوكهم ، بَدَوِيِّين أفَّاقين مفاجئين مُغِيرين سَفَّاكين مُولَعين بقِطَاعهم مندفعين فى الخِصام الوحشىّ ، فإذا ما بَلَغ الجَهْدُ منهم رَكَنُوا إلى خيالٍ رخيص تائهةً أبصارُهم فى الفضاء كُسَالى خالين من الفكر كأنعامهم التى يَحْرُسونها .

وإذ كان بنو إسرائيلَ متمردين على الفنون تمرداً مطلقاً ولم يكن لهم غيرُ ميلٍ هزيل إلى حياة المدن فإنهم لم يقيموا معابدَ وقصوراً إلا عن غرور ، والذى كان بنو إسرائيلَ يُفَضِّلونه بعد الذبح والتقتيل هو « السكونُ تحت شجر العِنب والتين » على حسب تعبيرهم .

وعيدُ المَظَالِّ هو أجملُ أعيادهم ، وفى هذا العيد الذى يدوم ثمانيةَ أيام

كانوا يغادرون بيوتهم ليعيشوا فى ملاجئ مرتجلة مُذ كَرّة بحياة البادية .

وإذا ما أريدت معرفة الإسرائيلىّ كما هو وجب ألا يُحْكَم فيه بآثاره المكتوبة التى ليس مُعْظَمُها سوى ذِكْرَياتٍ من كلدة ، بل يجب أن يُزَال عنه أثر الحضارة الخفيفُ الذى عانَى كثيراً فى اقتباسه من الدول القوية التى عاش فيها وأن يُنْظَر إلى مكانه من خلال سِفْر التكوين ، مثلاً ، حيث وُصِفَتْ حياته المُفَضَّلة ، حياةُ الرِّعاء ، أو أن يُبْحَث عنه فى السكان الحاليين بالبِقاع التى استولى عليها وفى القبائل البدوية الصغيرة بشمال جزيرة العرب وبسورية ، تلك القبائلَ التى لم تُغَيِّر طبائعَها وعاداتِها منذ ستة آلاف سنة أو ثمانية آلاف سنة .

ولم تكن فلسطين ، أو أرضُ الميعاد ، غيرَ بيئة مُخْتَلَقة لبنى إسرائيل ، فالبادية كانت الوطنَ الحقيقىَّ لبنى إسرائيلَ ، والبادية ، لِمَا عليه من نَمَطِيَّة وسكونِ منظرٍ وحياةٍ واحدة وصلاحٍ لأبسط الاحتياجات ، قد وسَّعت روحَ الساميين وبَسَّطَتْها فألقت فيها الشُّعَاع الخالد الهادئ لآفاقٍ لا حدَّ لها .

والباديةُ ، بجعلها خيالَ الساميين عقيماً عُقْمَ ترابها ، لاشَتْ فيهم بذورَ مختلفِ الخرافات التى استحوذت على النفس البشرية فى أماكنَ أخرى لمشابهتها النباتَ الخطِرَ حتى بزَخَره ، والساميُّون ، بما لديهم من مبادئ دينيةٍ عاطلة من أية صورة محسوسة ، ابتدعوا ، بفضل البادية ، الربَّ البعيدَ الجليل الأزلىّ الذى لاح ، فيما بعد ، ذا صفاء خالصٍ روحىٍّ لتعذر تعريفه وتشخيصه فبَسَط سلطانه على أمدن أمم العالم .

والإسرائيلىُّ قد خَسِرَ ، ذاتَ مرةٍ ، ذلك الربَّ بازدحام خُرَافَاتِ مصرَ وآسيةَ فيه ، بيد أن أنبياءه آذَنُوه ، فغدا أولادُ يعقوبَ قادرين على هداية

الناس إلى إيمانهم بردِّهم إلى عَنْعَنَاتهم الساميَّة الخالصة .

٣ – تاريخُ اليهود

لا يبدأ تاريخُ اليهود بالحقيقة إلا فى عهد ملوكهم .

كان بنو إسرائيلَ أقلَّ من أُمَّةٍ حتى زمنِ شاوُل ، كانوا أخلاطاً من عِصابات جامحة ، كانوا مجموعةً غيرَ منسجمةٍ من قبائلَ ساميَّةٍ صغيرةٍ أفّاقة بدوية تقوم حياتُها على الغزو والفتح والجَدْب وانتهاب القرى الصغيرة حيث تقضى عيشاً رغيداً دفعةً واحدة فى بضعة أيام ، فإذا مضت هذه الأيام القليلة عادت إلى حياة التِّيه والبُؤس .

وتكوَّنت زمرةُ بنى إسرائيلَ الساميّة كجميع العشائر ، فكانت مؤلفةً فى بدء الأمر من أُسْرَة واحدة ذاتِ جَدّ واحد ، وهذا الجَدُّ كان يدعى لدى بنى إسرائيلَ بيعقوبَ أو إسرائيلَ ، وإسرائيلُ هذا هو من ذُرِّية إبرٰهيم وإبرٰهيمُ هذا كان أولَ من هَجَرَ كَلْدَة من عِرْقة طَلَباً للرزق .

وهنا لك عددٌ غيرُ قليل من الأقوام الصغيرة ، كالأدوميين والعمونيين والإسماعيليين ، يَرْجِعُون أصلَهم إلى إبرٰهيم ، ويَزْعُم العِبْرِيُّون أنهم وحدَهم ذرية إبرٰهيم الشرعيون مع اعترافهم بقرابة الآخرين لهم .

ولم يقع انقسامٌ فى الأُسْرَة الرئيسية بعد يعقوبَ المُلَقب بإسرائيل ، فسُمِّىَ أعضاء هذه الأسرة ببنى إسرائيل لذلك السبب .

ودَفَعَ القحطُ يعقوبَ وبنيه إلى دخول مصرَ فى عهد الملوك الرُّعَاة فأقاموا بالدَّلْتا وكَثُرَ عددُهم واستعبدهم المصريون فسَئِمَ أبناؤهم من بؤسهم فاغتنموا فرصة فِتَنٍ اشتعلت ففَرُّوا من بلاد العبودية بعد عهد سِيزُوسْتِرِيسَ الكبير بزمن قليل .

ولَحِقَ ببنى إسرائيلَ عددٌ من المصريين الساخطين ومن الأسارى ومن العبيد المتمردين ، ولما جاوز بنو إسرائيلَ بحرَ القُلْزُم بَدَوْا عشيرةً أى جماعةً مُصِرَّةً على الظهور بأنها نسلُ رجلٍ واحد ، وإن كانت فاتحةً صفوفَها بالحقيقة لجميع الفُرَّار المستعدين لانتحال اسمها وتقاليدها ومعبوداتها الأهلية .

وفى البَداءة وَجَدَ بنو إسرائيلَ حياةَ البَدَاوة التى أضاعوا عادتها قاسيةً فثاروا على الزعيم الذى اختاروه غيرَ مرة .

وكان هذا الزعيم الذى تدعوه القصة بموسى ، وهو الذى لا نَعْرِف اسمه الحقيقىَّ على ما يحتمل ، من المهارة ما حَمَلَهم به على الإيمان بأنه ذو صلة بالسماء فيأتيهم بالأوامر من إله خاصٍّ ، من إله قبيلتهم ، وذلك ردًّا لهم إلى النظام ، واهتبل موسى فرصةَ هُبُوب أعاصيرَ هائلةٍ فوق سيناء وعلى جوانبه ، فألقى فى رُوع عِصابة العبيد تلك هَوْلًا شافياً مادامت سماء مصرَ الصافيةُ وآفاقُها المبسوطة لاعهدَ لها بما تَعْرِفه البلاد الجبلية من العوارض الطبيعية .

وجزيرةُ سيناء ، إذ كانت بالحقيقة فقيرةً جديبةً إلى الغاية ، لم تَصْلُح لإعاشة أهل البدو أيضاً ، فتوَجَّه بنو إسرائيلَ إلى الشمال وحاولوا دخولَ أراضى الشعوب الكنعانية الصغيرة ، وهم لَمَّا دَنَوْا من هذه الأراضى بَهَرَهم خِصْبها فاشتعلت نيران الحسد فى قلوبهم .

وتلك هى حالُ غِنَى البلاد المجاورة للأُرْدنّ فى ذلك الحين ، ولم تلبث قبائلُ الرُّعاة التائهةُ التى خَرَجَت من جزيرة العرب طالباً للمراعى أن استقرت بها تاركةً طبائعُها الرِّعائية لتكون زُمَراً زراعية .

وعانَى العِبْريون مثلَ هذا التطور فتحَوَّلوا من أناس بَدَويين إلى أناس

حَضَريين عند مارَسَخَت أقدامهم فى تلك الأراضى التى كانت مَحَطَّ أحلامهم، فى أرض الميعاد تلك التى طَمِعوا فيها غِلاظاً مدةً طويلة .

ولم يكن هنالك فَتْحٌ بالمعنى الصحيح على الرغم من أقاصيص مؤرخيهم المملوءة انتفاخاً ؛ ومن تعداد الانتصارات وتقتيل الأهالى وانهيار أسوار أريحا بالنقْر فى النواقير ووَقْف يُوشَعَ للشمس إمعاناً فى الذبح .

أجَلْ . فُتح بعض الضِّياع عَنْوَةً ؛ و يُفَسِّر انقسامُ العشائر الكنعانية الكبيرُ حقيقةَ النجاح الذى ناله بنو إسرائيلَ القليلو الذوق والضعيفو الأهلية للحرب والسَّيِّئو السلاح ؛ غير أن استقرار العبريين بفلسطينَ تم بالتدريج على مانرى ؛ فالعبريون قَضَوْا زمناً طويلاً ليكون لهم سلطان ضئيل فى فلسطين لا أن يكونوا سادتها .

والعبْريون ؛ إذْ كانوا منقسمين كالكنعانيين إلى عِدَّة عشائر تَسَمَّى أهمُّها بأبناء يعقوبَ رمزاً إلى الأسباط ؛ لم يتّفقوا فيما بينهم حتى على إكمال الفتح .

ومضى جميعُ دَور القُضَاة الذى عُدَّ دورَ بطولةِ العبريين التاريخىَّ فى القتال الجزئىِّ بجماعات صغيرة ؛ وذلك بأن تدافع كلُّ جماعةٍ بمشقةٍ عما استولت عليه من قطعة أرض .

وذلك النوعُ من القتال بين الزُّراع والرُّعاة وبين الحضَريين والبَدَويين مما هو معروفٌ جيداً ؛ وهو لا يزال يحدث اليوم فى سورية والجزائر وفى كلِّ مكان تَتَجلى فيه طبائعُ الساميين التى لم يقدر الزمن على تغييرها .

ومما يَقَعُ أحياناً أن يَكْتفى البدوىُّ بغزوِ البلاد الزراعية . فإذا ما أنزل ضربته وحَمَّلَ خَيْلَه وجِماله ماغَنمه لاذ بالفرار وأَوْغل فى الصحراء وتوارى

فيها ، ولكن الذى يَقَعُ فى الغالب هو أن يَميل إلى حياة الزُّرَّاع المطمئنة المنتظمة فينْسابَ بينهم ويُقيمَ عنـدهم قهراً ، فإذا مضى دور الخِصام رَضِىَ به جيرانه واختلط بهم .

ولم يكن غيرَ ذلك غَزْوُ بنى إسرائيلَ لفلسطين ، وذلك مع الفارق القائل إن عدد بنى إسرائيلَ واحتياجاتِهم وبؤسَهم فى مصرَ وحرمانَهم الهـائل ، فى التِّيه مما جَمَعَ بينهم وأقْنَطَهم فصاروا كقطيعٍ من الذئاب الهزيلة التى دَفَعها الجوع إلى الاقتراب حتى من المدن .

تَمَّ خروج بنى إسرائيلَ قبل الميلاد بنحو خمسةَ عشرَ قرناً تقريبـاً ، وهم لم يفـكروا فى تأليف أمةٍ واحدةٍ منهم ونَصْبِ مَلِكٍ عليهم إلا فى أوائل القرن الحادى عشرَ قبل الميلاد .

والواقعُ أن فتحَ فلسطينَ فى عهد شاوُل كان بعيداً من التمـام ، وفى فلسطينَ كان يعيش اليَبُوسِيُّون والعَصْمُونيُّون وطائفةٌ من الأمم الصغيرة بجانب بنى إسرائيل، وكان السلطانُ فى فلسطينَ للفلسطينيينَ ، العِرْق الوحيدَ الذى هو آرىٌّ على ما يحتمل، فاجتمعت الأسباطُ تحت لواء زعيم واحد للمرة الأولى منـذ دخول بلاد كنعان ، وذلك لـكيلا تُسْحق .

والحقُّ أنك لا تجدُ قاضياً استطاع أن يَبْسُطَ سلطانَه على جميع بنى إسرائيلَ ، فـكلُّ وَاحدٍ من هؤلاء الحـكام أو الشيوخ كان يتسلم قيادةَ زُمْرَة واحدة عند ما تُهَـدَّدُ هذه الزمرة تهديداً مباشراً ، وهو إذا ما كُتِبَ له النصرُ لم يحتفظ حتى بتلك القيادة .

وقد استمرَّ الأمرُ على هذه الصورة ، أى من غيرِ تبديلٍ ، مدةَ أربعةِ قرون .

وحوادثُ تافهةٌ كتلك لا يُعنَى بها التاريخ ، والتاريخُ إذا ما عُنِيَ بها كان ذلك لأسبابٍ مستقلةٍ عن أهميتها ، ومن ذلك أن حِصار عِصابة من البرابرة لمدينة تِرْوادَةَ الصغيرةِ واستيلاءهم عليها قبل الميلاد باثنى عشرَ قرناً مما غَدَا حادثاً ذا بالٍ فى تاريخ العالم ، لأن أُوميرُسَ تَغَنَّى به ، لا من أَجْلِ نتائجه .

ثم أنعم سَرَابُ الخيالِ النصرانىُّ بعظمةٍ أكبرَ من تلك على منازعاتٍ هزيلةٍ كانت تقع منذ أكثرَ من ثلاثة آلاف سنة بين عشائرَ صغيرةٍ من البَدَويين النَّهَّابين فى سبيل وادٍ يكون خصيباً بأحد الجداول .

وما أَتَى به مؤرخو اليهود من تدوينٍ لتلك الحوادث عَقِبَ وقوعها مع تجسيمٍ عظيمٍ هو دون ما صَنَعَته الكنيسةُ النصرانية بعد ذلك .

ومن يَقْرَأْ سِفْرَ صموئيلَ وسِفْرَ القضاة بشىء من روح النقد يُبْصِرْ دور العَنَتِ الذى جاوزه بنو إسرائيلَ فى استقرارهم بفلسطين ، غير أن هذه الأقاصيصَ نفسَها إذا ما نُظِرَ إليها من خِلال أَبْخِرة الحماسة الدينية أَلْقَت فى النفوس وهماً قائلاً إن ذلك الفتحَ ساطعٌ مُعْجِز .

وبِشَاؤلَ بدأ بنو إسرائيلَ يؤلفون أمةً فاستحقوا أن تُفْتَح لهم صَفْحةٌ صغيرة عن التاريخ الحقيقىّ الذى كان لهم فى العالَم .

أنقذهم ملكُهم الأول ذلك من هَوْلِ الفلسطينيين الدائم بأن أنزل على هؤلاء الأجانب ضَرَبَاتٍ هائلةً .

وكان خليفتَه داودُ صورةً تاريخية طريفةً إلى الغاية ، فأُشَبِّهه ، مختارًا ، ببابَرَ المُغولىّ ، مع أنه لا يساوى بابَرَ هذا الذى كان فى مقْتَبَل عمره رئيساً لقريةٍ فافتتح شمال الهندوستان مُبْدِياً إقداماً لا يُصَدّق قاتلاً مُعَذِّباً الألوفَ من

البشر ، بابْرَ ذلك الذى كان شاعراً أديباً مع همجيته .

وأمثلةٌ كتلك لا تَجِدُها إلا فى الشرق تحت تلك الشمس المحرقة التى تقتطع من الطبيعة محاصيلَ عظيمةً وتُنْبِتُ أضخمَ الأشجار وأجسمَ الحيواناتِ وأقوى الأبطال ، وأما فى غَرْبنا فترَى المتغلبين والطامعين ذوى نفوسٍ أكثرَ عُنْفاً وأشدَّ اتِّزاناً فلا يقايضون سيفَهم الدَّامِىَ طائعين بالمِزْهَر ولا يُخافِتُون بصوتهم الذى خُلِق للقِيادة فى سبيل وَزْنٍ لَيِّنٍ للأشعار .

ويَعْوِزُنا أن يُشابه داودُ المَلِكَ التقىَّ المتعطشَ إلى العدل المُخْتَنِقَ بشهيق التوبة الأَوَّابَ فى مزامير الاستغفار التى حَفِظَتها الروايةُ لنا .

ومما نَعْرِفه أن داودَ كان مرتلاً شاعراً . ولكنك إذا عَدَوْت رِثاءه لشاولَ ويُوناثانَ اللذين ماتا وهما يقاتلان الفلسطينيين فوق جبال جِلْبُوعَ وَجَدْتَنا نجهَل ما وَضَعه من النشائد ، وفى المزامير قليلٌ جِدًّا مِنَ الذى صَنَعه منها كما نرى .

ومعرفتُنا لداودَ المحاربِ أحسنُ من تلك ، وآيةُ مَجْدِه فى مَنْحه بنى إسرائيلَ عاصمةً وفى حُسْن اختياره لهذه العاصمة ، فلولا أُورَشَلِيمُ (القدس) لكان شأنُ اليهود ضئيلًا إلى الغاية ، وأُورَشَلِيمُ أضحت رأسَ بنى إسرائيلَ وقلبَهم ، وأُورَشَلِيمُ أَوْجٌ ، وأُورَشَلِيمُ رَمْزٌ ، وأُورَشَلِيمُ لا تزال تُلْقِى أشعتها على العالَمَ من خلال ماضيها مع إكليلٍ نَسَجَتْه حماسةُ ملايين البشر وإيمانُهم وأوهامُهم لا رَيْب ، ولكن لا جدالَ فى نُور هذا الإكليل .

وأىُّ اسمٍ كُرِّر مع التمجيد والوَلُوع أكثرُ من اسم تلك المدينة الدينية ؟ لا تزال مقاطع ذلك الاسم السحرية تجرى على شِفاهنا القليلةِ التصديق بحلاوة تأخذ بمجامع قلوبنا فتَنْقُلنا إلى خيال رائع بعيد المَدَى ، ولن تَنْسَى الإنسانية

من فَوْرِها أن تُوَجِّه أنظارَها إلى تلك المدينة الإلهية ، حتى إن الإنسانَ اليَقِظ إذا صار لا يبحث عن نجاته فوق الجبل الذى هو محلُّ رَمْزِه العظيم فتَنَه هذا الجبلُ بسحرِ ذِكْرَياته .

وداودُ ، لكى يُنْعِم على قومه بتلك العاصمة الواقعة فى أصلح مكان وأسهل محلّ للدفاع عن فلسطينَ ، اضْطُرَّ إلى طرد اليَبُوسِيين ، سادةِ جبلِ صَهْيُون ، ولم يكن اليَبُوسِيُّون وحدَهم هم الأعداءَ الذين وجب على داودَ أن يقهرهم ، فقد أظهر داودُ فى عهده من النشاط الكبير ما أقام به الوَحدة اليهودية جاعلًا المملكة العِبْرية الصغيرة على رأس جميع الأمم التى كانت تقتسم سورية .

قال مسيو رينان فى صَفْحة مُمْتِعة من كتابه « تاريخ بنى إسرائيل » : « إن داودَ هو مؤسسُ القدس ، وهو أبو الأُسْرة التى أَسْهَمَت فى عمل بنى إسرائيل إسْهاماً وثيقاً ، وهذا مادلَّ الأقاصيصَ القادمةَ عليه ، وليس مما يَمْضِى بلا عقاب أن تُمَسَّ ، ولو على وجهٍ غيرِ مباشر ،عظائمُ الأمور التى تَنْضَجُ فى سِرّ البشرية .

« وسنشاهد تلك التحولات بين قرنٍ وقرنٍ فنرى أن لِصَّ عَدلامَ وصِقْلَغَ يكتسب بالتدريج أوضاعَ القديس فيكون واضعَ المزامير والممثلَ المقدسَ ومثالَ المنقذ المُقْبِل ، ويغدو يسوعُ ابناً لداودَ ، وتَبْلُغ التراجم الإنجيلية من البُهْتان فى طائفةٍ من الأمور ماتَجْعَل معه حياةَ المسيح نسخةً عن مُقَوِّمات حياة داود ! أَلَا إن الأتقياء حين يُسَرُّون بالمشاعر المملوءة تسليماً وحسرة فى أجمل الكتب الدينية يعتقدون اتصالَهم بذلك اللِّصّ ، أَلَا إن البشرية تؤمن بالعدل النهائىّ فى شهادةِ داودَ مما لم يصدر عن داودَ ... فياللرواية الإلهية الهزلية ! » .

واقتطف سليمانُ بن داودَ أثمارَ ما أبداه أبوه من نشاط ضارٍ ، وفى عهدسليمانَ بلغ مصيرُ الشعب اليهوديّ ذُرْوَته ، فلما مات سليمانُ دخل هذا الشعبُ دورَ الانقسامات والفوضى .

والملكُ سليمانُ ، الذى عاش حاكماً شرقيًّا حقيقيا بكثرة آلهته وبدائرة حريمه المشتملة على مئات النساء وبثيابه الزاهية وبقصوره وبحرسه الأجنبىّ ، اتّفَق له فى خيال الناس من التحول مالا يقلّ عما اتفق لأبيه من غُفْران وتطهير .

والملكُ سليمانُ شاد الهيكلَ عن زَهْوٍ لا عن زُهدْ ، وذلك تقليدًا لأُبَّهة ملوك مصرَ وآشورَ واستنساخاً لطُرُزها البنائية .

وانهمك سليمانُ فيما لا عَهْدَ لأسباط بنى إسرائيلَ الجليفةِ به من ضروب المَلاذِّ الآسيوية فلم يفكر فى غير التمتع بعملِ داودَ تَمَتُّعَ ذى أثَرَةٍ فأثقل كاهلَ الشعب بالضرائب ليقوم بنفقات شَهَوَاته مُعِدًّا بذلك مُقْبِل الفتن .

ومع ذلك جُعِلَ من سليمانَ ذلك الرجلُ المرتابُ النبيهُ المتكلمُ فى سِفْرِ الجامعة ، وأُغمِضت العيونُ عن عيوبه تفكيراً فى شَبَابه حيث تقول القِصَّةُ إن الرّبَّ خاطبه رأسًا مبصراً إياه نَقِيَّ اليدين خليقاً بأن يَبْنِيَ هيكله .

وكان سليمانُ ماهرًا فى رَبْطِ شعبه بروابط المحالفات ، فصار مَلِكُ مصرَ صديقاً له مُزَوِّجًا إياه بإحدى بناته ، وارتبط فيه مَلِكُ صُورَ حِيرَامُ بِصِلات الصداقة والتجارة ، وفى القِصَّة أن ملكة سبأ أتت من أقاصى جزيرة العرب حاملةً له بعضَ الهدايا مختبرةً عِلْمَه وحكمته ببعض الأسئلة .

وامتدت مملكةُ إسرائيل ، إذ ذاك ، من دِمَشْقَ إلى مصرَ ومن البحر المتوسط إلى حدٍّ بعيدٍ من البادية الشرقية .

وإذا كان سليمانُ لم يَشْهَرْ حرباً افتتح أراضىَ كثيرةً متغلِّباً على الرِّمال ، وذلك بأن وَسَّعَ رُقْعة الأراضى الصالحة للزراعة ، وبأن شاد مدينةَ تَدْمُر الرائعة فى مكانٍ يلوح لنا اليوم أنه غيرُ نافع للسَّكَن ، غير أن مصير تلك المدينة كان مؤقتاً كما يظهر ، فمركزٌ كبيرٌ للسكان كذلك المركز لا يمكن أن يدوم فى سَوَاء البادية بعيداً من مجارى المياه المهمة إلا بمعجزات الصناعة والعمل ، فلما مات سليمانُ نَهَكَت الفِتَنُ الأهلية بنى إسرائيل فهُجِرَت تلك المدينةُ الشرقية إلى أن استولى عليها الرومان وجَدَّدوا بناءها ، واليوم ترى أعمدةَ تلك المدينة قائمةً فى اعتزالٍ فيقضى السائحُ منها العَجَب ممتلئةً نفسُه بغَمٍّ غريب .

ولا يزال اسما سليمانَ وتَدْمُرَ الكبيران يَبْهَران الفكر ، لِمَا يبدو من سطوعهما فى تاريخ بنى إسرائيل الكئيب . والمرء إذا ما صَدَفَ عنهما لم يُبْصِر غيرَ هُوَّة مظلمة دامية تَزْلُق فيها هاويةً بما يُثير الحُزْن تلك المملكةُ الصغيرة التى مَنَّ عليها داودُ وابنُه بعَظَمةٍ مدةَ سنواتٍ قليلة .

ولبضعةِ قرونٍ تُحافظ أُورَشَليمُ ، حيث يَمْلِك آلُ داودَ ، على شىء من التفوق الأدبىِّ ، فتكون مركزاً ثقافيًّا لفلسطين ، وذلك بأن غدَا الكهنةُ يؤلفون الأقاصيصَ ، وبأن صار عظماء الأنبياء يُسْمِعون أصواتَهم مُجِدِّين مع أولئك ، على غير جَدْوَى ، فى إعادة وَحدة بنى إسرائيلَ بوَحْدة تقاليدهم ودينهم .

وأما مملكةُ الأسباط العشرة التى أقامها يَرُبْعام متخذاً شَكِيمَ (نابلسَ) ثم السَّامِرَة (سَبَسْطية) عاصمةً لها فقد كانت مسرحاً لأفظع الفجائع ، وما كان يقع فيها من اغتصابٍ ومذابحَ واستعانةٍ بالأجنبىِّ فقد أثار ازدراءَ الأمم المجاورة دومًا ، فلم تنفكَّ هذه الأممُ تطالب بإبادة بُؤْرَة الفوضى والتمرد تلك .

وتحِلّ سنة ٧٢١ قبل الميلاد ، فيَهْدِم ملكُ نِينَوَى ، سَرْجُون ، مملكةَ السامِرَة ، وتحافظ مملكةُ أُورَشَلِيم ، وهى أصغرُ من تلك بمراحل ، على قليل من النظام والكرامة والنفوذ فتدوم نحو قرنٍ ونصف قرنٍ بعد تلك ، على أن مملكة أُورَشَلِيمَ تلك مدينةٌ فى بقائها المؤقت هذا للثَّوْرات التى كانت تَقْلِب كُبْرَيات دول آسية ، فكان من نتائج سقوط نِينَوَى تأخيرُ سقوط أُورَشَلِيم .

بَيْد أن ملوكَ اليهودية أثاروا غضبَ نَبُوخَذْ نَصَّر بمحالفتهم لفرعونِ مِصْرَ ، فاستولى ملك بابل القَوِىُّ على أُورَشَلِيم فى سنة ٥٨٦ ق . م فجعل عاليَها سافلَها وهدم هيكلَها وجعل من اليهود أَسارَى فغدت أُورَشَلِيمُ أثرًا بعد عَيْن .

ومن العبث أن أصدر كُورشْ مرسوماً أَذِنَ فيه للعِبْريين فى العودة إلى فلسطين وإعادة بناء مدينتهم وهيكلهم ، فهم لم يُجَدِّدوا بناءَ أُورَشَلِيم إلا مرتجفين مهدَّدين من قِبَل ملوكِ فارسَ الذين كانت تساورهم الرِّيَبُ حول كلِّ حجرٍ يضاف إلى الأسوار آمرين قُسَاةً بوَقْف العمل فى غير مرة مستمعين فى ذلك لتقاريرَ كاذبةٍ .

والواقع أن استقلال اليهود لم يكن غير اسمىٍّ بعد ذلك ، وما فَتِئَ الفُرْس والأغارقة والرومان يَبْسُطون سلطانَهم المرهوب بالتتابع على تلك المملكةَ الهزيلة فتتميز هذه المملكة غيظاً من هذا الاستعباد المتصل فلا تَجِدُ ما تَتَعزى به عن عجزها سوى إلقاء فارغِ الخُطَب .

وما كانت الأحلامُ العظيمة التى صدرت عن أنبيائها ، وهم الذين لم يستطيعوا أن يَمُنّوا عليها بالوطنية ولا بالنشاط ولا بالرُّكون إلى مصيرها ، لتؤدِّيَ إلى غير إسكارها فى خِزْيِها وبؤسها وإلى غير زيادة انتفاخها كأُمةٍ

سَحِقَت وذُقَّت .

والشعبُ اليهوديُّ إذ كان على جانبٍ كبير من الجُبْن العميق عاد لا ينتظر نهوضَه بغير معجزة ، وذلك على الرغم من إبدائه شيئاً من اندفاعات البطولة في دور القضاة وعهدِ داودَ وحين مقاتلته اليائسة لبابل ، وأوجب تفسيرُ أسفار كَتَبَتَه الوطنيين والدينيين امتلاءه أوهاماً عجيبة ، وحَيَّرَت لَهْجَتُه الفارغة دولةَ رومة العُظْمى نفسها ، فاقتصرت على احتقاره مع أنها كانت تَعْلَمَ قدرتَها على سَحْقِ وَكْرِ المتعصبين المشاغبين ذلك عند الضرورة ، ولم تُعْتَمّ فوضى ذلك الشعب الصغير المزعج وفسادُه وضوضاؤه أن استنفد صَبْرَ تلك الدولةِ العُظْمى فعزمت على إبادته لكيلا تَسْمَع حديثاً عنه .

ففي سنة ٧٠ من الميلاد استولى تِيطُسُ على أُورَشَلِيمَ وجعلها طُعمةً للنيران وبدئ بتشتيت شَمْل اليهود .

ولكن ذلك الشعبَ المتعصب فيما كان يَخْرُج من صَفّ الأمم ، وفيما كانت تذهب رِيحُه ، وفيما كان يُهَدّ في طريق العالَم حتى يُدَاس بازدراء تحت أقدام الشعوب في قرون كثيرة ، وفيما كان يَقْضِي تلك الدقيقةَ الحرِجَة من حياته فتلوح أنها آخرُ دقائقه إذْ ظهر منه ذلك المهوسُ الشهيرُ الذي سيسود اسْمه الغربَ نحو ألفي سنة ، إذ ظهر منه عاملٌ جليليٌّ غامضُ الأمرليكون الإلهَ المرهوبَ لدى أمدن شعوب الأرض .

الفصل الثاني

نظم العبريين وطبائعهم وعاداتهم

ظَلّ اليهود حتى آخر مَرْحلةٍ من تاريخهم في أدنى درجةٍ من الحضارة قريبين من دَوْر التوحش الخالص .

ولم يجاوز اليهودُ طبائعَ أمم الزُّرّاع والرُّعاة إلا قليلاً جِدًّا ، وخضَع اليهود لنظام رعائيّ ولم يكادوا يدْخُلون دائرةَ التطور الاجتماعيّ .

وتوزيعُ الأعمال من العلائم التي تَتجلى بها حالُ الحضارة لدى أحد الشعوب ، والعبريون لم يكادوا يُفرّقون بين الحِرَف في عهد الملوك ، فنرى كلَّ أُسْرَة في دور تاريخهم الطويل تتدارك احتياجاتِها الخاصة ، فتَخْبِز خُبْزَها وتَفْتِل غَزْلَها وتحُوك نُسُجَها فتَصْنَع منها ثيابها وتزرع حقولها وتُربِّي أنعامَها فتَذْبَحُها وتُعِدّ جلودَها .

والحِدادةُ هي أولُ صَنْعة بدَتْ مستقلةً ، غير أن المعادن لم تكن كثيرةً لدى بني إسرائيل ، فكانت الأدواتُ الحجرية والخشبية أكثرَ الأدوات انتشاراً ، وما كانت الأسلحةُ نفسُها مصنوعةً دوماً من الحديد ولا من النحاس ، ومن الحقّ أنْ كانت الصوّانةُ التي تُؤْخَذ من السيل أمضى من الرُّمْح في يدِ هؤلاء الرُّعاة الجنود ، فبالمِقْلاع قتَلَ داودُ جُلْيَاتَ الجبّار .

وتلك العاداتُ هي عاداتُ الأعراب الذين لا يزالون يعيشون في أطراف البادية ، وتلك العاداتُ لم يُغَيِّرْها بنو إسرائيلَ حتى بعد أن أبصروا حضاراتِ مصرَ وآشورَ الساطعةَ .

وبنو إسرائيلَ ظَلّوا قوماً من الزراع والرُّعاة فقط ، فانحصر عملهم في تربية المواشي وزراعة القمح والتين والزيتون والعنب على الدوام .

وما كان عملُ أبطال بني إسرائيلَ قبل قيادتهم إلى النصر غيرَ جَرِّ المِحْراث وجَزِّ الشياه ، فكان جدْعُون يَدْرُس البُرَّ ويَذْرُوها حينما بَدَا له المَلَكُ فأمره بأن يُنْقِذ قومه من نِير المَدْيَنيين ، وكان شاوُلُ يبحث عن أُتُنِ أبيه حينما أخبره صَمُوئيل بأنه سيكون مَلِكاً ، واجترأ داودُ على الحرب بردِّه الضواري التي أتت لتهاجم ماشيتَه حينما كان راعياً .

وتوزيعُ الأعمال ، بحصرِه مهارةَ العامل في مادةٍ واحدة ، يؤدي إلى تحسين الصِّناعة ويُسهل ازدهارَ المِهْنة ، وما كان العِبْريون ليَسِيرُوا بهذا التوزيع إلى الحدِّ الذي ينالون به مثلَ هذه النتائج .

ولم تكن في فلسطين أيةُ صِناعة مهما كان نوعُها ، وإذا حدث أن صنع اليهودُ شيئاً فعلى ألا يستحقَّ الإصدار ، وفي عهد سليمانَ حينما لاح التَّرَفُ كان هذا التَّرَف يُغَذَّى بالمُنْتَجات التي يُؤْتَى بها من الخارج .

وكان يقوم إصدار العِبْريين على ثَمَرَات الأرض من بُرٍّ وخمر وزيت ودُهْن وما إلى ذلك ، فتُرْسَل هذه المحاصيلُ ، على الخصوص ، إلى فنيقية التي لم يكن لديها غيرُ أراضٍ ضَيِّقة لا تكفي لإعاشة مدنها الكبيرة ، فتُدْخِل فنيقية إلى بلاد اليهودية في مقابل ذلك ماتصنعه في مصانعها ، أو ماتأتي به من العالم ، الذي كانت

ذات علاقة به ، من الحُلِيِّ والرِّياش والسلاح والنُّسُج والخشب والعاج .

وكذلك كان بنو إسرائيلَ عاطلين ، حتى في إبّان أُبَّهَتِهم ، عَطَلًا تامًّا من العمال المَهَرَة في الحِرَف الغليظة كالنِّجارة مثلًا .

قال سليمانُ لمَلِك صُورَ حِيرَام : « والآن فمُرْ بأن يُقطَع لى أرْزٌ من لُبْنان وعبيدى يكونون مع عبيدك ، وأجرةُ عبيدك أُؤَدِّيها إليك بحسب جميع ماترْسُم ، لأنك تَعْلَم أن ليس فينا من يَعْرِف بقَطْع الخشب مثل الصَّيْدُونِيِّين ، والآن أرْسِلْ إلىَّ رجلاً حاذقاً بعمل الذهب والفِضة والنُّحاس والحديد والأُرْجُوان والقِرْمِز والسَّمَنْجُونيّ » .

وكان سليمانُ يُعطِي حِيرَامَ في كلِّ عامٍ عشرين ألفَ كُرٍّ من الحِنْطة وعشرين ألف كُرٍّ من زيت الرَّضِّ فيدلُّ هذا ، بما فيه الكفاية ، على أيِّ شيء كانت تقوم ثروة بنى إسرائيل .

ومن فنيقية أيضاً أتى عاملٌ ماهرٌ جدًّا ، فجاء في التوراة أنه :«صانعُ نُحاس، وكان ممتلئاً حكمةً وفَهْماً ومعرفةً في كلِّ صنعة من النُّحاس » ، ورَكَّبَ هذا العاملُ صَهْرَ مازُيِّن به الهيكلُ من الأعمدة والآنية النُّحاسية ووَضْعها .

وإذا لم تَخْرج الصِّناعة في بلاد اليهودية عن أدنى الأطوار البَدَائية أمكننا أن نبصر من ذلك حالَ الفنون في تلك البلاد ، أو عدَم وجودَ هذه الفنون فيها على الأصح ، لِما كان من عدم وجود أيِّ شيء يَتَجلى فيه ذلك هنالك .

ولا تَجِدُ شعباً عَطِلَ من الذوق الفنيِّ كما عَطِلَ اليهود .

والشريعةُ التى حَرَّمت على اليهود مَنْحُوتَ الصُّور لم تَحْرِم العالَمَ آثاراً نفيسةً بذلك ، وما وقع من مخالفة اليهود للوصية الثانية غيرَ مرة لم يُؤَدِّ إلى غير العُجُول

النُّحاسية أو الذهبية التي هي أصنام اليهود المُفَضَّلة المصبوبة صبًّا رَدِيئًا على أوتادٍ غليظة عُدَّتْ رُمُوزاً للرُّجُولَة والمنصوبةُ تحت غِيَاضِ عَشْتَرُوت، تلك الأصنامُ القومية، أو التَّرَافِيمُ، التي هي ضَرْبٌ من اللُّعَبِ المثيرة للسُّخْرِيَة والتي أُضْجِعَت إحداها على فِراش داودَ مستورةَ الرأسِ بعنايةِ زوجته لِتُعطِي، بطريق العِوَض، جنودَ شاوُلَ المُرسَلين ليقتلوه.

إذَنْ، لا ينبغي لنا أن نُحَدِّث عن وجود شيء من فَنِّ النحت أو التصوير لدى بني إسرائيل، وقُلْ مثلَ هذا عن فَنِّ البناء عندهم، فانظرْ إلى هيكلهم المشهور (هيكل سليمان) الذى نُشِرَ حولَه كثيرٌ من الأبحاث المُمِلَّة تَجِدْه بناء أُقيم على الطراز الآشوريِّ المصريِّ من قِبَل بنَّائين من الأجانب كما تدل عليه التوراة.

ولم تكن قصورُ ذلك الملك غيرَ نُسَخٍ دنيئةٍ عن القصور المصرية أو الآشورية، ولا تَعْتَقِدْ أن ذلك المَلِكَ أقام في مدينةِ تَدْمُرَ التي أسَّسها تلك الأعمدةَ الفَخْمَةَ التي قاومت عملَ القرون فلا تزال تثير العَجَب، فتلك الأعمدةُ قد وُضِعَت بعد ذلك بزمن، وكان نَبُوخَذْنُصَّر قد دَكَّ جميعَ تَدْمُرَ سليمانَ فلم يَبْقَ فيها حجرٌ واحد.

ولم يمارس العِبْريون من الفنون الجميلة سوى الموسيقى التي هي فنُّ جميع الشعوب الابتدائية، وكانوا شديدي الحب لها فيَمْزُجون بها ملاذَّهم وتمريناتِهم العسكريةَ وأعيادَهم الدينية، ومما لا مِرَاءَ فيه أنها قليلةُ التعقيد شبيهة بألحان النُّوَّاحِ لدى العرب المعاصرين، ونَعُدُّ من آلات الطرب المعروفةِ عندهم: المِعْزَفَ والطُّنْبُورَ والصَّنْجَ والمِزْمَارَ والبُوقَ والطَّبْــل.

وعلى ما كان من ممارسة بني إسرائيلَ للحرب باستمرارٍ لم تصبح الحرب

فنًّا ولا عِلمًا عندهم ، فكانت تعوزهم التعبئة ، وما كان ليُكتَبَ لهم فوزٌ إلا بضربٍ من الصَّوْلة المشابهة لغارة البَدَويين المعاصرين ، وبنو إسرائيلَ إذ كانوا جُبَنَاءَ خُوَّفًا بطبيعتهم لم يَبْدُوا مرهوبين إلا بما كان يحاول إلقاءه زعماؤهم وأنبياؤهم فيهم من حماسةٍ مؤقتة .

جاء في سِفْر الملوك : « فَسمِع شاوُلُ وجميعُ إسرائيلَ كلامَ الفلسطينيِّ (جُلْيَات) هذا فارتاعوا وخافوا جِدًّا » .

ولَمَّا سار جِدْعُون إلى المَدْيَنِيِّين خاطب جنودَه بقوله : « من كان خائفًا مرتعدًا فلْيَرْجِعْ وينصرف » ، فتركه من هؤلاء اثنان وعشرون ألفًا من اثنين وثلاثين ألفًا ليعودوا إلى منازلهم .

ويَعْرِف جميعُ قراء التوراة وحشيةَ اليهود التي لا أثَرَ للرحمة فيها ، وما على القارئ ، ليقنع بذلك ، إلا أن يتصفح نصوصَ سِفْر الملوك التي تدُلُّنا على أن داودَ كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسَلْخ جلودهم ووَشْرِهم بالمِنْشار ، وكان الذبحُ المُنظَّم بالجملة يَعْقُب كلَّ فتح مهما قَلَّ ، وكان الأهالي الأصليُّون يُوقَفُون فيُحْكَم عليهم بالقتل دفعةً واحدة فيُبَادون باسم يَهْوَه من غير نظرٍ إلى الجنس ولا إلى السن ، وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء .

جاء في سِفْر يشوع أنهم بعد الاستيلاء على أريحا « أَهْلَكُوا جميعَ ما في المدينة من رجلٍ وامرأة وطفل وشيخ حتى البَقَرَ والغنمَ والحميرَ بحدِّ السيف ... وأَحْرَقوا المدينةَ وجميعَ ما فيها بالنار إلا الذهبَ والفضة وآنيةَ النُّحاس فإنهم جعلوها في خِزانة بيت الرَّب » .

وكان اليهودُ يُمارسون الرِّقَّ على مقياس واسع ، ولم يكن حالُ الرقيق عندهم

لا يُطاق ، شأنه ، لدى جميع الشرقيين ، فقد كان الرقيقُ من العِرْق الإسرائيلي يعامَل كفرد من أبناء الأُسْرَة ، وكان يحِقُّ له بعد انقضاء سبع سنين أن يخيَّر بين العِتْق والبقاء رقيقاً ، فإذا ما استحوذ عليه غَمُّ الغد أو الشعورُ بالعجز عن كفاية نفسه بنفسه أو حُبُّ سيده الصالح اختار النَّجْدَ الثانى فظلَّ رقيقاً مَدَى حياته ، وإذا ما اختار النَّجْدَ الأول وَجَبَ ألا يُسَرح بغير أسبابٍ للمعاش .

جاء فى سِفْر التَّثْنِيَة : « إذا أطْلقتَه حُرًّا من عندك فلا تُطْلقه فارغاً ، بل زَوِّدْه من غَنَمك وبَيْدرك ومَعْصَرتك . . . واذْكُرْ أنك كنتَ عبداً فى أرض مصر » .

وفى سفر اللَّاويين نرى الحُكْمَ القائلَ بمعاملة بنى إسرائيل الذين يُباعُون من أجْلِ الدَّيْن كأُجَرَاء لا كأرِقَّاء .

ويُضيف المشترعُ إلى ذلك قولَه : « . . . من الأمم التى حَوَالَيْكُم تَقْتَنُون العبيدَ والإماء » .

وكان أفرادُ كلِّ سِبْطٍ يؤلِّفون لدى اليهود أُسْرَةً متحدةً متبادلةَ العَوْن على الدوام كما عند جميع الشعوب القائلة بالنظام الرِّعائى .

جاء فى سِفْر التَّثْنية : « إذا كان عندك فقيرٌ من إخوتك فى إحدى مدنك فى أرضك التى يُعْطِيكَها الرَّبُّ إلهُك فلا تُقَسِّ قلبَك ولا تَقْبِض يدك عنه ، بل ابْسُطْ له يدكَ وأقْرِضْه مقدارَ مايَعُوزُه » .

وكان الرِّبا محرَّماً بشدة بين بنى إسرائيلَ مع أنه عملُهم المُفَضَّلُ تجاه الأجانب فى كلِّ زمن ، وكان مبدأُ التضامن القوميِّ الزاجرَ القويَّ الوحيدَ الذى

يَضَع حَدًّا لجشَع اليهودىّ .

ولم تنطفىء بعد الفتح روحُ الأُسرَة ، أى ذلك الشعورُ القديم الذى نشأتحت الخيمة وغُذِّى فى البادية فقُدِّس سلطانُ الأب على الدوام ، فكان للمباركة واللَّعانيَة الأبويتين قدرةٌ تكاد تكون خارقةً للعادة فى كل حين .

ومع ذلك خَسِر رب الأُسْرة حقّ الحياة وحقّ الممات على أبنائه كما خَسِرَ حَقّ تغيير نظام ولادتهم بأن يَعْترف بحقِّ البِكْرية لمن يشاء منهم .

على أن حقّ البِكْرية لم يكن ليَمْنَح صاحبَه فى فلسطينَ سوى زيادةٍ تافهة فى الميراث مادامت التَّرِكَة تُقَسّم بين جميع الأولاد ، ومنهم البنات .

وكانت كثرةُ الذرية تلوحُ أعظمَ مايَمُنُّ به يَهْوَه على الرجل ، وكان عُقْم المرأة يُعَدُّ عاراً .

وكان الرجل إذا مات عقيماً تزوج أخوه الأصغرُ بأرملته وَصْلًا لسببه كما جاء فى التوراة .

وإذا كان الميتُ غيرَ ذى أخٍ تزَوّج بأرملته أقربُ آله إليه ، فكان من النصائح رفضُ ذلك فى مثل تلك الحال .

وكان على المرأة التى يَرْفُض سِلْفُها أن يتزوجها أن تراجع بابَ المدينة حيث يَجْلِس الشيوخ ، والبابُ كان له عند اليهود ، كما فى جميع الشرق ، شأنُ الساحة أو المحكمة لدى الرومان ، ومثلُ هذه العادة مما لُوحِظَ فى أبواب آشورَ الكبيرةِ .

فأمام الشيوخ تقول الأرملة المرفوضة :

« قد أَبَى أخو زوجى أن يقيم لأخيه اسماً فى إسرائيلَ ولم يرْضَنى زوجةً » .

وهنـالك يستدعى الشيوخُ المتمردَ ويدعونه إلى القيـام بما هو مفروض عليه ، فإذا أصر على رفضـه خَلَعَت كَنَّتُه نَعْلَه من رِجـله وتَفَلَتْ فى وجهـه أَمام الشيوخ ، وقالت :

« هكذا يُصْنَع بالرجل الذى لا يَبْنِى بيتَ أخيـه » .

« فيُدْعَى فى آل إسرائيلَ بيتَ المخلوع النعـل » كما جاء فى سِفْر التَّثْنِيـة .

وكان مبدأُ تعدد الزوجات شـائعاً كثيراً لدى بنى إسرائيـل على الدوام ، وما كان القانون المدنىُّ أو الشرعىُّ ليعارضه ، ومما حدث فى الدور الرَّعائى أنه كان لإبراهيمَ ويعقوبَ أزواجٌ كثيرات ، ويعقوبُ قـد تزوج بانتظـامٍ الأختين لَيْئَةَ وراحيلَ ، وسليمانُ كان له عِدَّةُ مئاتٍ من النساء وكانت النساء تُنَال بالشراء كما هو عند العرب المعاصرين .

وكانت البَكَارَةُ أمراً مُقَدَّراً كثيراً لدى اليهود ، فإذا أثبت الزوج أن زوجتـه الفتاةَ لم تـكن عذراءَ مع أن أبويها زَوَّجُوه بهـا على أنهـا بِـكْر قُتِلَتْ رَجْماً ، وإذا ثَبَتَ كَـذِبُ الزوج أُلْزِم بدفع مئةٍ من الفِضة إلى أبويْهـا ومُنِـعَ من تطليقها .

ومن يَغْتَصِبْ فتاةً يُحْمَلْ على تجهيزها والزواج بها .

ومن يغتصبْ فتاةً مخطوبةً يُعَدَّ عملُه مساويًا لزنا الزوج فَيُقْتَل .

ومن الغرابةِ بمكانٍ أن كانت الفتاةُ تُعَدُّ مذنبةً فتُرْجَم إذا حَدَثَ الُجرْمُ فى مكانٍ مسكون لعدم استغاثتها فيه مع إمكان ذلك ، وأن كانت الفتاةُ تُبَرَّأُ إذا وقع الُجرْم فى البرية لإمكان استغاثتها من غير أن يُسْمَعَ صوتُها .

وكان الوفاء الزوجىُّ أمراً محـترمًا لدى بنى إسرائيـل ، وكان زنا الأزواج

يُعَد جُرمًا فظيعاً فيعاقَب مقترفُه بالقتل ، وزنا المرأة ، لا زنا الرجل ، هو المقصودُ هنا ، وذلك لاستطاعة الرجل أن يتزوج بالعدد الذى يرغب فيه من الزوجات الشرعيات وغير الشرعيات ماسَمَحَت وسائلُه له بذلك ، وما كان الرجلُ لِيُعَدَّ مجرمًا إلا إذا زنى بفتاةٍ مخطوبةٍ أو بامرأةٍ متزوجة فهنالك يُقْتَل .

وليس زنا الأزواج هو الجُرْمَ الوحيدَ الذى تُحَرمه الشريعة على مِزاج بنى إسرائيلَ الداعرِ ، فنى شريعتهم تعدادٌ لدَعارات عنيفةٍ مع شِدَّة عقوبةِ مَنْ يقترف إحداها ، وتُثْبِت هذه الشدة كثرةَ المخالفات .

وسِفاحُ ذوى القربى ، أى الزنا بالأخت والزنا بالأم ، واللواطُ والمساحقةُ ومواقعةُ البهائم من أكثر الآثام التى كانت شائعةً بين ذلك الشعب الذى نَصَّ تاسيت على شَبَق له لا يُرْوَى غَليلُه .

وأُرِيدَ لدى بنى إسرائيلَ ، كما عند كلِّ شعب ذى غُلْمَة ، خلطُ أفظع الملاذِّ بالطقوس المقدسة وموافقةُ الشريعة على هذه الملاذّ فعُدَّت ضروبُ البغاء تكريمًا لعَشْتَرُوت وعُدَّ الانهماك فى السُّكْر على بُسُطِ الأزهار وتحت ظِلال شجر الزيتون فى الليالى الرطيبة نوعًا من العبادة التى لم تَفْتَأْ تُمارَس آنئذٍ فى فلسطين على الرغم من غضب الأنبياء .

وما فى الفصل الثامنَ عشرَ من سِفْر اللاَّوِيِّين من المحظورات ، كسِفاح ذوى القُرْبَى واللِّوَاط ومواقعة الرجال والنساء للبهائم وما إلى ذلك من الأمور التى لم يُحَرِّمْها مُعْظَم الشرائع لعدم فائدة النصِّ على ذلك ، فيَدُلُّ على درجة غُلْمَة الشعب اليهودىِّ .

وفى المجتمع اليهودىِّ ، كما فى جميع المجتمعات الابتدائية ، كانت المرأةُ

كثيرةَ التَبَــع فتُعَد مملوكةً تُشْترى من أبيها عنـد النكاح ، فيكون زوجُها سيدَها المطلق .

ولم يكن لنَذْرٍ أو قَسَمٍ تُبْديه المرأةُ أيةُ قيمة مالم يُؤَيده زوجُها .

ولم تكن المرأة محصورة كالمرأة الشرقية في أيامنا ، فالمرأة إذا ما كانت ذات مواهبَ خاصةٍ أمكنها أن تُمَثل دوراً كمريمَ أختِ موسى وكدَبُورَة التي كانت قاضيةً .

وللنساء حقٌّ الميراث عند اليهود ، وللأم في الأُسْرَة حقٌّ الاحترام كالأب ، فقد جاء في سِفْر الخروج : « أَكْرِم أباك وأُمّك » ، وكان الموتُ جزاءَ من يَضْرِب أباه أو أمه .

وقانون العقوبات لدى بنى إسرائيلَ كان كلُّه يقوم على مبدأ القصاص الفطريّ الجاهليّ ، ويُلخَّصُ في الأسطر الآتية التي جاءت في سِفْر اللّاوِيِّين :

« ومَنْ قَتَلَ إنساناً يُقْتَل قَتلاً ، ومن قَتَلَ بهيمةً فلْيُعَوِّضْ مثلَها رأساً بدلَ رأس ، وأيُّ إنسانٍ أحْـدَثَ عيباً في قريبِـه فلْيُصْنَـعْ به كما صَنَع ، الكَسْرُ بالكسر والعـينُ بالعـين والسِّنُّ بالسنِّ كالعيب الذى يُحْـدِثه في الإنسـان يُحْدَث فيه » .

حتى إن هذا الحكم كان يُطبَّق على الحيوانات أيضاً .

« فإذا مانَطَح ثَوْرٌ رجلاً أو امرأةً فمات النَّطِيحُ رُجِم الثور من فَوْره » .

وكان المجرمون يحاكَمون ويُجَازَوْن باسم المجتمع ، ومع ذلك بَقىَ من الطبائع الابتدائية في المجتمع اليهوديِّ ما كان يَحِقُّ للمظلوم أن يَقْتَصَّ به لنفسه ، ومن هـذا القبيل حقُّ القريب في الانتقام للقتيل ، وكان لهذا القريب المعروف بوليّ الدم أن يقتل القاتل في غير المعبد وفي بعض الملاجىء .

ولم يَرْتَقِ اليهود إلى ماهو أعلى من درجة التطور الدنيا هذه التى لم تكن وحيدةً فى عاداتهم ، ولم تكن سَنَةُ الإبراء عند اليهود إلا وجهاً مُخَفَّفاً من الشيوعية الابتدائية .

وفى كل تسع وأربعين سنة ، أى ما يَعْدِل أسبوعَ سنواتٍ فى سبع سنواتٍ كما كان يقول اليهود ، كانت تُفْتَتَح سَنَةُ الإبراء ، وهى السنة الخمسون ، فتُتْرَك الأرضُ بائرةً فيها ، ويُحَرَّر العبيد فيها ، وفيها تَسْتَرِد كلٌّ أُسْرَة إسرائيلية ميراثَ آبائها فى الحِصَّة التى أُعْطِيَت لأجدادها عند القِسْمة .

وإذا عَدَوْت سَنَةَ الإبراء وجدتَ لدى اليهود سَنَة البطالة ، وفى هذه السنة تُؤَجَّل الديون ، وفيها يَسْتَرِدُّ الإسرائيليون الذين غَدَوْا أرِقَّاء بسبب فقرهم حريتَهم « لكيلا يكون بينكم فقراء » كما جاء فى الشريعة .

ومن خِلال ذلك تُبْصِر الشيوعيةَ القديمة المانعة من كلِّ تقدم ، والتى تَوَدُّ الاشتراكية الحكومية أن تسوقنا إليها ، ومن المحتمل أن يَجِدَ الباحث فى دوام تلك النُّظُم الابتدائية أحدَ الأسباب التى حالت دون تقدم المجتمع اليهودىِّ فى الصِّناعة والفن والثَّقافة .

وكان الاعتداء على المال يُعَدُّ ذنباً عظيماً فيجازَى مجترحُه بردِّ ضِعْفَىْ قيمة المال المسروق أو ثلاثة أمثال قيمته ، وقد يبلغ ذلك خمسةَ أمثال قيمته أو سبعةَ أمثال قيمته فى بعض الأحيان .

وكان الفصلُ من المجتمع الإسرائيلىِّ من أقسى العقوبات التى تُفْرَض فى غيرِ حالٍ لِما يتضمنه من الموت المدنىّ ، وكان الذى يحتمل هذا الجُرْمَ يَخْسَر المنافع الثمينة التى يَمُن بها لقب الإسرائيلىِّ عليه ويَخْسَر فوائد التضامن الذى كان

ينتفع به أدنى شخص من ذُرِّيَّة يعقوب .

وتُذَكِّرنا حكومة العِبْريين ، على الدوام ، بالنظام الرِّعَائيِّ الخاص الذى يُشاهَد لدى جميع البَدَويين .

وحافَظ الشيوخ ، حتى فى عهد الملوك ، على كبيرِ سلطانٍ فى كل مدينة .

وفى غُضُون القرون كان الشيوخُ أو القضاةُ يتسلمون القيادةَ فى زمن الحرب على غِرار رؤساء العِصابات البدوية .

حتى إن الملوكَ أنفسَهم كانت لهم تلك المَزِيَّة الأبوية أو العسكرية التى يُشْتَقُّ منها كلُّ سلطان لدى بنى إسرائيل ، وما كان الملوك هؤلاء ليشابهوا عاهِلِي آسية المتكبرين الذين هم ضربٌ من شباه الآلهة فلا يُقْتَرَب منهم إلا بارتجاف ، إلا بتعريض النفس للْموت ، وكان شاوُلُ وداودُ ، وسليمانُ نفسُه، وجميعُ خلفائهم يعيشون قريبين من الشعب بلا تَكَلُّف كَيِّنِى الجانب تِجاه الجميع مُعَنَّفين منَ الأنبياء ، مُهَانين بلا عقابٍ فى بعض الأحيان ، شأنُ داودَ الذى رَجَمه شِمْعِى بالحجارة .

وكانت حياة بنى إسرائيلَ الخاصةُ بسيطةً ، وكانت ثَرَواتهم الكبيرة تتألف من المواشى والأثمار والبُرِّ والثياب المُعَدَّة ليُبْدَل منها بغيرها .

وكان لِباسهم كلباس العرب المعاصرين ، وكانوا يحتذون نعالًا ، وكانوا يتذوقون الحُلِيَّ ، وغدَا غُنَاج نسائهم عظيمًا فى أواخر عهد الملوك ، وأثار حُبُّهم للحُلِيِّ غضبَ الأنبياء ، ومما ذكرتُه بسبب النفائس فى بابِلَ عددُ زخارف بنات الشرق الزاهيات أولئك كما ورد على لسان إشَعْيَا الحادِّ .

وفى بَلاط سليمانَ تجلت أكبرُ أُبَّهة عُرِضَت لدى بنى إسرائيل ،

جاء فى سِفْر أخبار الأيام الثانى : « رأت ملكة سبأ البيتَ الذى بناه سليمانُ وطعامَ موائده ومسكنَ عبيده وقيامَ خُدَّامه ولِباسَهم وسُقَاته ولِباسَهم ومُحْرَقاتِه التى كان يُصْعِدها فى بيت الرَّبِّ » .

ويمكننا أن نُبْصِر ، من خلال الاحترام الممزوج بالدَّهَش فى وصف المؤرخ لِتُرُوسِ الذهب التى زَيَّن بها سليمانُ قصرَه ولِعرْشه العاجىِّ المُرَصَّع بالذهب وآنِيَتِه الذهبية ، درجةَ ما كان يمكن أن يؤثِّر به مثلُ هذه النفائس فى روح العِبْريين الساذجة .

ومن الطريف أن يلاحَظ منذ ذلك الدور سرورُ اليهود فى عَرْض الأموال والنفائس عَرْضاً غليظاً وفى اتخاذ المصنوعات الفنية الثمينة بفعل التقليد .

ولم يَجْرِ على فَمِ مؤلفِ سِفْر أخبار الأيام الثانى غيرُ كلمة الذهب فى وصف مظاهر الترف لدى سليمانَ ، وقد كُرِّرَت هذه الكلمةُ اثنتى عشرةَ مرةً فى بضعة أسطر :

« عَمِل الملك سليمانُ مئتى مِجَنّ من ذهبٍ مطروق لِلْمِجَنّ الواحد ستُّمئة مثقال ذهب مطروق ، وثلاثَمئة مِجَنٍّ من ذهب مطروق للمِجَنّ الواحد ثلاثُمئة مثقالِ ذهب . . . وعَمِلَ الملك عرشاً كبيراً من عاجٍ وألبسه ذهباً خالصاً ، وكان للعرش ستُّ درجاتٍ مع مَوْطِئٍ من الذهب . . . وكانت جميعُ آنيةِ شُرْب الملك سليمانَ ذهباً . . . لم يكن فيها فِضة ، إذ لم تكن الفِضة تُحْسَب شيئاً فى أيام سليمان » .

وما كان من عَرْض ذلك الذهب بجميع الأشكال فى القصور والهيكل العاطل من كلِّ جمال فنىّ فيدلُّ على الروح اليهودية الساذجة الغليظة .

والتجارةُ كانت مصدَر تلك الثَّروات ، ولا سيما فى دور التجارة البحرية تلك التى جرَّبها سليمان تجربةً لم تَدُم طويلًا ، وما كان بنو إسرائيل ليفكروا فى أمر البحر ، فقد كان ما يتخذه الملك من السفن والمَلّاحين يُؤْخذ من فنيقية كما كان يؤخذ خشب الأَرْز والبنَّاءون منها لشَيْد الهيكل .

« وأرسل له حِيرام على أيدى عبيده سُفُناً وعبيداً عارفين بالبحر فأتَوْا أُوفِير مع عبيد سليمان وأخذوا من هناك أربَعمئة وخمسين قنطاراً من الذهب ...

«وكان للملك فى البحر سُفُن تَرْشِيش مع سفن حِيرام فكانت سفنُ تَرْشِيش تأتى مرةً فى كل ثلاث سنين حاملةً ذهباً وفضة وعاجاً وقِرَدَةً وطواويس » .

ولم تختلف بيوت بنى إسرائيل قَطُّ عما يشاهَد اليوم فى سورية، فكانت بيوت المُوسِرين من الحجارة وبيوت المُعْسِرين من الآجُرّ .

وكانت تلك البيوت بسيطةً فى داخلها ، وكان رياشها يتألف من سُرُرٍ وموائدَ ومقاعدَ وقواريرِ عطورٍ عاديةٍ مادةً وشكلاً كما يظهر .

والنظافةُ هى التَّرَف الأول الذى حاول المشترعون نَشْرَه بين بنى إسرائيلَ فلاقَوْا كبيرَ أذًى فى الوصول إلى ذلك ، والنظافةُ كانت أمراً ضرورياً لذلك الشعب الوخِم أكثر مما لأىّ شعب آخر ، وذلك لكيلا تَقْرِضَه القُرُوح والجَرَب والقُوباء والجُذام ، وآيةُ تُراث بنى إسرائيلَ المستقلةُ عن مواعيد يَهْوَه المشكوكِ فيها هى الدمُ الفاسد الذى من شأنه أن يُسْتَر بنو إسرائيلَ بالأمراض الجلدية على الدوام .

ولاحظ مشترعو بنى إسرائيلَ أن لحم الخنزير واللحومَ الدامية والحيواناتِ الهُلامِيَّةَ (اللّافَقْرِيَّة) والمَحارَ مما يؤدى إلى زيادة الأمراض الجلدية فحرَّموا عليهم هذه الأغذيةَ لهذا السبب لا رَيْب ، وكان أكلُ الخنزير مما يَمْقُته يَهْوَه ،

وكان لا يجوز استعمالُ لحم المواشى إلا بعد استنزاف كلِّ دمٍ منه .

وكان لا بدَّ من الأوامر الشرعيـة الصارمة لمنـع بنى إسرائيل من أكل لحم الـكلب والمَيْتَة وجميع أنواع الأوساخ .

وكان التطهير والغُسْل ممـا أُمِرُوا به ، وغدا الختانُ تدبيراً صحيًّا ، ووجب على النساء أن يَقُمْن بالعناية الشـديدة فى كل حال تقضى الطبيعـةُ عليهن به من الدَّنَس المحتوم .

ويَحْـمِل كلٌّ واحد من هذه التدابير مؤيِّدًا دينيًّا فتُعَدُّ مخالفته أمراً مرهوبًا .

وفى سِفْر اللَّاوِيين فصولٌ تامةٌ خاصةٌ بوصف الأمراض الجلدية وبوقَايات العَزْلِ الضرورية منعًا لسَرَيانها بالعَدْوَى ، فإذا أُصيب المرء ببَثْرَة وجب عليه أن يَمْثُلَ أمام الـكَهَنة ليقرروا خطرَ الإصابة أو عدمَه ، وكان لا مَعْدِل عن حَرْقِ ثيـاب المَرْضَى والأدوات التى يَمَسُّونها .

ولولا مِثْلُ هذه الوِقَايات ماوُفِّقَ بنو إسرائيلَ للبقاء .

واليهودُ ، على خِلاف مُعْظم الشرقيين ، كانوا يَخْشَوْن الموت لِما لا يُبْصِرون وراءه سوى راحةٍ كئيبة فى مكان مظلم ، فـكانوا يحتفلون بعيد الحياة احتفالَ تمجيدٍ فيَبْـكُون من يَفْقِدُونهم مُبْدِين من الألم المُفْرط ماوجب مَنْعُه .

وكانوا يُوَلْوِلُون وينتحبون ويَضْرِبون صدورَهم ويَشُقُّون ثيابَهم ويَغْمُرُون أنفسهم بالرَّماد إظهاراً لِحدَادهم ، ولا مبالغةَ فى الألم يوم المأتم كما يظهر ، وكان الميت يُنْقَلُ إلى قبر الأُسْرَة المنحوت فى الصخر فيستقبله آباؤه كما جاء فى التوراة .

وكانت المظاهر الصاخبة تظهر فى الفَرَح ظهورَها فى التَّرَح ، ومن ذلك أن داودَ أبدى من السرور ، حين جَلَب إلى أُورَشَليم تابوتَ يَهْوَه ، ماخَلَـع معه

ثيابَه وأتى من الوُثُوب بما أُوتِى من قوة صاخباًصَخَبَ الفرح مسيئًا لزوجته ميكالَ بنتِ شاوُلَ إساءةً عَدَّتْه مجنوناً من أجلها .

وإذا أُريد تلخيصُ مِزاج اليهود النفسىِّ فى بضع كلمات كما يُستنبط من أسفارهم وُجِدَ أنه ظَلَّ على الدوام قريباً جداً من حال أشدِّ الشعوب ابتدائيةً ، فقد كان اليهود عُنُداً مندفعين غُفَّلًا سُذَّاجًا جُفَاةً كالوحوش والأطفال ، وكانوا مع ذلك عاطلين فى كلِّ وقت من الفُتُون الذى يتجلى فيه سِحْرُ صِبَا الناس والشعوب ، واليهودُ الهَمَجُ إذ وُجِدُوا من فَوْرهم مغمورين فى سَوَاء الحضارة الآسيوية المُسِنَّة الناعمة المفسدة أضْحَوْا ذوى معايبَ مع بقائهم جاهلين ، واليهودُ أضاعوا خِلال البادية من غير أن ينالوا شيئاً من النُّمُوّ الذهنىِّ الذى هو تُرَاث القرون .

وإذا أُريد وصفُ المجتمع اليهودى من ناحية النُّظُم أمكن تلخيصُه فى كلمتين وهما : نظامٌ رِعائىٌّ مع طبائع المدن الآسيوية الهَرِمة وذوقِها وعيوبِها وخُرَافاتها .

ويُعْرِب حِزْقِيَال عن ذلك الرأى فى الفصل السادسَ عشرَ حين يذكر ظهورَ الشعب اليهودىِّ الحقير وأوائلَه الهزيلةَ وما عَقَبَ استقرارَه بفلسطينَ من الحُمَيَّا فيقول مخاطباً تلك الأمة العاقَّة قائلًا باسم يَهْوَه :

« وفى جميع أَرْجَاسِكِ وفواحشكِ لم تَذْكُرِى أيام صِبَاكِ ... وإذ كُنْتِ لم تَشْبَعِى زَنَيْتِ مع بنى آشور ولم تَشْبَعِى ... فلذلك أَقْضى عليكِ بما يُقْضَى على الفاسقاتِ وسافكات الدماء وأجعلُك قَتِيلَ حَنَقٍ وَغَيْرَة ».

الفصل الثالث

دين بني إسرائيل

لم تكن الدِّيانةُ اليهودية فى كلِّ زمن مطابقةً لِما نسميه اليوم باليهودية .

وكان لا بدَّ من انقضاء قرون طويلة قبل أن تُصْبِح مناحى الساميين التوحيديةُ الموحَّدةُ فى كَوْنِيَّة بابلَ والمُحَوَّرَةُ بالتدريج من الإشراك الآسيوىِّ الدينَ الذى زاوله اليهودُ منذ يسوعَ المسيحِ والذى يُرَدُّ إلى زمن العودة من إسارة بابلَ تقريباً

ولا شَبَهَ بين إله اليهود الراهن ، الذى يُوَحَّدُ بأبى المُخلِّصِ إلهِ النصارى ، وإلهِ سيناءَ يَهْوَه الذى يُراد اشتقاقُه منه ، وهو أكثرُ مشابهةً من ذلك بإله الرُّعاة الغامض الكبيرِ إِلُوهِيمَ الذى لا تَجِدُ له شخصيةَ يَهْوَه الضيقةَ الشديدة .

وَإِلُوهِيمُ هو الاسم الذى نراه قد أُطْلِق بالحقيقة على الألوهية فى أقدم أسفار اليهود .

ولا يمكن أن يقال إن إِلُوهِيمَ هو إله واحد ، لجُمْعِيَّة اسمه ولأن جميع الكلمات التى تَرْجِع إليه قد وَرَدَتْ بصيغة الجَمْع .

فبنو إسرائيلَ كانوا يَعْبُدون ، إذَنْ ، إِلُوهيماتٍ فى أثناء حياتهم البدوية التى قَضَتْها أجيالُهم الأولى .

ولذلك لا ينبغى أن يُطْلَب من هذا الشعب البسيط تعريفٌ وثيق لموضوع

عبادته ، ولمبادىء الروح الساميَّة ما لآفاق الصحراء من الوجه الفَخْم النمطيِّ المُبْهَم ، والروحُ الساميَّة لا تُحَدِّد شيئاً ، والروحُ الساميَّةُ لا تحتوى شيئاً على أوجهٍ واضحة مُقَرَّرَة كثيرة كالتى أسفر عنها الخيالُ الآرىُّ بسهولة ، واليوم لا تَجِدُ لدى البدوىِّ الحاضر سوى دين مبهم لا يَكْترث له ، وذلك على الرغم من إسلامه الظاهر .

وما كان من فُقْدان الأوثان بين الساميين ومن احتياجهم إلى البساطة فقد كان يُعِدُّهم إلى التوحيد فانتهَوْا إليه بسرعة .

على أن من الإفراط فى التوكيد أن نَخْلَط توحيد حياتهم الابتدائية المبهم بما أعلنوه بعد زمنٍ من الإيمان بإله واحد .

والحقُّ أن إلُوهِيمَ الأجيال القديمة السَّدِيمِيَّ العاطلَ من الجنس والاسم والواحدَ والمتعددَ فى آنٍ واحد يَقْرُب من إله الأديان الكبرى الحديثة العامِّ أكثرَ من قُرْبه من يَهْوَه الجائر الذى يَقْطُر من دَمِ الشعوب المذبوحة ومن لَحم القرابين والحامى الوثيقِ لشعبٍ صغير هزيل والأخِ لِمُولَكَ وبَعْلٍ .

ومن الصعب ، مع ذلك ، أن يُسْهَب فى بيان دين اليهود الابتدائىّ ، وذلك لأننا لا نستطيع أن نحكم فى أمره إلا من خِلال حال شعوب الجنوب الساميَّة ، أى شعوبِ ذلك العِرْق التى لم تُعانِ نفوذَ الأجنبىّ .

ومهما نَعُدْ بعيداً إلى تاريخ ساميِّى الشمال (العمونيين والإسماعيليين واليهود) لم نَسْتطِع أن نَعْرِف من دِيانتهم غيرَ ما كان عَقِبَ إقامتهم بما بين النهرين ، تلك الإقامةِ التى طُبِعَت بطابع الفكر الكلدانىِّ الثابت .

وعَمَّ الإشراك آسية منذ أقدم أزمنة التاريخ اليهودىّ ، حتى فى آل

إبراهيم ، وثلاثةٌ من الموجودات الإلهية هى التى أوحت إلى هذا الأب الراعى بهدم سَدُوم ، وراحيلُ أخذت معها أصنامَ لابَان حين تركت بيت أبيها .

ومما يُبْصَر من قِصَّة إسحقَ ، كذلك ، وجودُ القرابين البشرية منذ ذلك الزمن ودوامُ هذه القرابين لدى بنى إسرائيلَ زمناً طويلاً .

وأسفرت إقامة العِبْريين بمصرَ عن قليلٍ أثر فى دِيانتهم ، ومن غير الحقّ أن أُريدَت رؤيةُ ذكرى أَبِيسَ فى العِجْل الذهبىّ على ما يحتمل .

وكان ذلك العجل ، الذى هو رَمْزُ الرُّجُولَة ، منتشراً فى جميع آسية ، وكان ذلك العجلُ من أصلٍ كلدانىّ ، وكان بنو إسرائيلَ يَعْبُدون العجولَ المَعْدِنيـة بعـد خروجهم من مصرَ بطويلِ زمنٍ لارتوائهم من مبادئ ما بين النهرين الدينية ، وكان هذا هو الوجهَ المُفَضَّلَ الذى يَرْمُزُون به إلى يَهْوَه .

ومن مصرَ لم يقتبس بنو إسرائيـلَ سوى جُزْئِيَّاتٍ ظاهرِيّة ، أى صُدْرَةِ الأحبار وتابوتِ العهـد أو النَّاوُوسِ السَّهْل النقل المشتمل على يَهْوَه فى شـكلِ حجرين .

ومما يذكر أن فرعونَ مصْرَ ، وهو المساوى للآلهة ، هو الذى كان يَحِقُّ له وحدَه أن يفتح الناوُوسَ وأن يرَى الشِّعارَ المرهوبَ الحافل بالأسرار .

وفى اليهودية كان يَحِقُّ للحَبْر الأعظم وحدَه أن يَدْخُلَ مرةً واحدةً فى العام الواحد قُدْسَ الأَقْدَاس حيث تابوتُ العهد .

والويلُ كلُّ الويل لمن يَجْرُؤُ على مَسِّ ذلك الصُّوَان المقدَّس ، فقـد أصيب الفلسطينيون الذين كانوا قد أخذوه معهم بين غنائمهم بشرورٍ مرهوبة لم يَنْجُوا منها إلا بعـد أن أعادوه ، واعتقد أحدُ ضباط داودَ سقوطَ ذلك التابوت فأراد

دَعْمه فمات من فَوْره .

وكلُّ ما استطاعه بنو إسرائيلَ هو أنهم اقتصروا على اقتباس تلك الخُرَافات من الحضارة المصرية العظيمة التى هى أَسْمَى من مستواهم بمراحل ، وبنو إسرائيلَ كانوا يَتْرُكون تلك الخُرَافاتِ كلما أُشْبِعوا من المعتقدات الآسيوية ، وآخرُ ذِكر لتابوت العهد وَرَدَ فى سِفْر إِرْمِياَ ، فبعد أن تكلم هذا النبىُّ عن انتصار إلٰهٍ روحانىٍّ واحد بين بنى إسرائيلَ أضاف إلى ذلك قولَه :

« لا يعودون يقولون تابوتُ عهد الرب ولا يَخْطُر لهم ببال ولا يذكرونه ولا يفتقدونه ولا يُصْنَع من بَعْدُ » .

وفى وادى الفرات نشأت دِيانة بنى إسرائيلَ ، أو على الأصحِّ مختلفُ العبادات التى مارسها بنو إسرائيلَ ، وذلك بين إقامتهم بفلسطينَ وعودتهم من إسارة بابل .

حتى إن أسماء آلهتهم تدلُّ على أصلها الأَكَّادىِّ فى الغالب .

فكلمةُ إِلُوهِيمَ هى جمعٌ لكلمة إِيلَ التى تجىء فى كَلْدَة بمعنى الإلٰه الأعلى ، وكلمةُ بابل فيما بين النهرين تجىء بمعنى باب إِيلَ ، كما أن بيتَ إِيلَ تجىء فى اليهودية بمعنى منزل إيل .

والمكانُ الذى قاتل يعقوبُ الربَّ فيه سُمِّى فَنُوئِيل ، وتَسَمَّى هذا الراعى فيما بعد باسم إسرائيلَ (الذى هو أقوى من إيلَ) .

وليست الإلٰهة الكبرى الشهوانيةُ عَشِيرا أو عَشْتَرُوت التى كان العبريون يعبدونها فى الأماكن العليا بين الغِيَاض والتى كانوا يأْتون بالدَّعَارَاتِ المقدسة تكريماً لها إلا زهراء (فِينُوسَ) بابلَ عَشْتَار .

وليس بَعْلُ الذى جعله بنو إسرائيلَ منافساً لِيَهْوَه ، والذى اختلط به فى نهاية الأمر ، بَعْلَ كلْدَة ، وإنما انحدر منه على وجه غير مباشر ، أى بعد أن جاوز فِنيقية حيث استعاره العِبْريون .

وإذا عدَوْت دائرةَ الأسماء التى هى أمرٌ ظاهرىٌّ إلى الغاية وجدتَ أساسَ الدين يدلُّ على أيةِ دائرةٍ من الأساطير صَدَرَت عنها معتقداتُ اليهود .

فمن يَنْظُر إلى نظام الكون البابلىِّ القديم ، الذى وُجِدَ فى الكتابات المِسمَارية والذى هو أقدمُ من تاريخ التوراة بعدة قرون ، يُبْصِرْ مشابهتَه للكونية التى وردت فى سِفر التكوين والتى ليست غيرَ نسخة بسيطة عنه .

على أن الرأى البابلىّ القائل بخَلْق الدنيا فى ستة أيام ، أى فى أدوار متعاقبة ، مما كان كثيراً على الدور الذى بَدَا فيه ، فليس تَبَيُّنُ ذلك بالذى يَصْدُر عن شعبٍ سامىّ ذى أفكار مبهمة .

وما تراه ، أيضاً ، فى أقاصيص سِفْر التكوين من نوع المنطق ومن براعة التأليف وقوةِ الخيال فما يجاوز قابلياتِ بنى إسرائيلَ بمراحلَ لا يُحْصيها عَدٌّ .

وترى الكنيسةُ معجزةً فى تَفَتُّح تلك الكَوْنيَّة العظيمة فى صميم عِصابةٍ من البدويين الجاهليين الأجلاف فتستنتجُ من ذلك صدورَها عن وَحْيٍ إلهيّ بحكم الطبيعة .

ويتضحُ سِرُّ المعجزة ويزول افتراضُ الوحى عندما ترى فاتحةَ التوراة فى كتابات حكماء كَلْدَة التى هى أقدمُ من سِفْر الخروج بزمنٍ طويل .

ومن الإصابة قولُ مسيو رِينَان : « لم يَخْتَرِع الراعى البدوىُّ تلك الأقاصيصَ الرائعة ، بل أوجب نجاحها ، ولم تكن الكَوْنيَّة الكلدانية لتَعُمَّ

العالَمَ بشكلها الزائد الوارد فى النصوص الآشورية ، فكان لابدَّ من القريحة السامِيَّة لتبسيط تلك الكَوْنيَّة فى الوقت الذى أرادت النفس البشرية فيه مبادئَ واضحةً حَوْلَ مالا يُعْرَفُ بوضوح ... فَغَدَت الغرائبُ التى كانت تَظَلُّ مختنقةً فى حَشْوِيَّات الشرق من الأمور البديهية ، وتمَّت هذه المعجزةُ بفضل خيال بنى إسرائيل الجلىِّ القانع ، وما كان غريباً فى تاريخ كَلْدَة بدا فى أقاصيص التوراة من الصحة والسهولة ما رأت فيه سذاجتُنا الغربيةُ تاريخاً معتقدةً أنها إذا ما انتحلت هذه الأقاصيصَ قَطَعَت صلتها بالأساطير الأولى » .

ولا تُبْصر الأساطيرَ الكلدانية فى سِفْر التكوين وحدَه ، بل تجد آثاراً لها فى أسفارٍ أقلَّ قِدَمًا منها على وجهٍ أقلَّ وضوحًا ، ومن ذلك قصةُ شِمْشُون التى وردت فى سِفْر القضاة .

يُمَثِّل شِمْشُون الهِرْكُولَ الإسرائيلىَّ بقدرته الغريبة وأعماله التى كان يُنْجزها بوسائل بسيطةٍ جِدًّا ، والواقعُ أن هركول من أصل بابلىّ ، ويَتَجلى مثالُه فى نيِبِيبَ المعروف ، ذلك الإنسانِ الآشورىِّ الأكَّادىِّ العجيب الذى كان يقتل الأسدَ بيدٍ واحدة ، ولم يكن اسمه شِمْشُونَ مع ذلك ، بل كان شِمْشُونَ الذى معناه : « الشمس » ، أى نصفَ الإلٰه الذى كان يوجد كثيراً على ضِفاف الفرات .

وليس لدينا من الوقت ما نَعرِض فيه هنا ما أسفر عنه تفسير التوراة الحديثُ حَوْلَ تلك المسائل ، وإنما نقتصر على ذكر أمرٍ اقتبسه اليهود من عبادات كَلْدَة .

إن من الأقاصيص التى انتحلها بنو إسرائيلَ طَوْعًا هى قصةُ تَمُّوزَ الإلٰهىِّ

ابنِ عَشْتَارَ الذى ذهبت الآلهة لتبحث عنه حتى سَوَاء الجحيم .

وكان يُمَثِّل موت تَمُّوزَ الذى غدا أذُونِيسَ الإغريقِ نهايةَ الخريف ، وكان ذلك الإله الجميلُ يموتُ فى كلِّ سنة لِيُبْعَث بعد كلِّ شتاء ، فإذا دلَّ حرُّ الصيف على فَقْدِهِ بُكِى باحتفال ، فكانت النساء تقوم بالشعائر المأتمية نادباتٍ طالعَه .

ومما رواه حِزْقِيَالُ أنه كان فى زمانه نساء تبكى تَمُّوزَ فى معبد الربِّ .

ولْنَبْحَث الآن فى صفاتِ أهمِّ آلهة بنى إسرائيلَ وأخلاقِها ، وذلك من غير دخول فى التفصيل .

كان للآلهة ، يَهْوَه وبَعْلٍ وعَشِيرَا ، طبائعُ وصفاتٌ خاصةٌ بالسيارات والجوِّ والشمس كما كان لجميع آلهة كَلْدَة .

وانتقل إلى جميع الساميين الذين سكنوا مابين النهرينْ ما كان يساور قدماء سكانه من التأثير العميق الثابت الصادر عن منظر السماء الساطع الصافى وعن عوارض العواصف المفاجئة المرهوبة .

وظَلَّت عبادة الشمس والقمر والنجوم قائمةً طويلَ زمنٍ لدى جميع أمم سورية ، ولدى بنى إسرائيلَ على الخصوص .

وفى زمن حِزْقِيَال ، حَوَالَىْ أواخر أيام مملكة يهوذا ، كان يمكن أن يُرَى ، حتى فى هيكل أورَشَليم ، يهودُ كانوا يسجدون أمام الشمس مُوَلِّين وجوهَهم شَطْرَ المشرق .

وكانت عبادةُ الشس تختلط آنئذٍ بعبادة الحيوانات ، وذلك لِما كان من تصوير القوم على جُدُر معبد يَهْوَه صُوَرَ الزَّحَّافَات والبهائم والأشياء الكريهة

وجميع آلهةِ آل إسرائيلَ الفاضحة كما روَى النبيُّ ذلك .

ومع ذلك أسفر الإصلاحُ اليَهْوِيُّ العظيمُ الذى قام به الملك يُوشِيّا قبل ذلك بقليلِ سنواتٍ عن تطهير الهيكل من الأصنام التى كان حافلًا بها .

فقد أمر ذلك الملكُ الكهنةَ كما جاء فى سِفْر الملوك :

« أن يُخْرِجوا من هيكل الربِّ جميعَ الأدوات المصنوعة للبَعلِ والعَشْتارُوتِ ولجميعِ جنود السماء فأَحْرَقَها » .

« وأزال الخيلَ التى أقامها ملوك يهوذا للشمس من عند مدخل بيت الربِّ وأَحْرَق مراكب الشمس » .

ولكن شعب إسرائيلَ كان قد بلغ من الغَرَق فى الإشراك ما كان يتعذر معه على عزيمةِ ملكٍ أو خُطَبِ نبىٍّ تخليصُه منه .

وكان إله النار مُولَكُ الهائلُ الذى هو من الأصنام المُفَضَّلة ، يُمثَّلُ بتماثيلَ نحاسيةٍ فيُوضَع صِغَارُ الأولاد على ذُرْعانها المُحماة .

وكان التقىُّ يُوشِيَّا يحارب تلك الخرافة الظالمة ، « فنَجَّسَ تُوفَتَ التى فى وادى بنى هِنُّومَ لكى لا يُجيزَ أحدٌ ابنَه أو ابنتَه فى النار لمُولَكَ » .

وكان مُولَك إلهَ النار الضارة ، وكان يُمَثل الصاعقةَ التى تَحْرق الحصاد وحرارةَ الشمس الضارية التى تجعل السهولَ جديبةً ، وكان مُولَكُ إلهًا مرهوبًا فيجبُ تسكينُه .

وكان بَعْلٌ ، على عكس مُولَكَ ، يُمثل الشمس النافعة، فيُنْضِج أثمار الأرض ويُحَمِّرُ القِطْفَ العِطْرىَّ بين خُضْرة الغصُون ، وكان الفنيقيون ، على الخصوص ، يَعْبُدون بَعْلًا فأدخلته إيزابَلُ الصِّيدُونيَّة ، على الخصوص ، إلى العِبْريين :

وظهر فى عهد زوج تلك الأميرة أخْآبَ جفافٌ عظيم ، فتصارع نبىٌّ يَهْوَه إيليَّا والكهنةُ ليَعْرِفوا أىُّ آلهتهم يُـنْزِل المطرَ وَيَمُنُّ على الحقـول بالُخضر ، وظهر أن دعاء إيليَّا أعظمُ أثراً من دعاء مُنَافِسيه فأساء هـذا الأمرُ الملكةَ إيزابَلَ كثيراً .

وكان لعَشِيرا ، وهى عَشْتارْتا الفنيقيين وعَشْتارُ بابلْ ، أو ميليتا بابلَ ، عظيمُ حُظْوةٍ لدى شعب إسرائيل الشَّبِق ، وذلك لِما كان لها من شعائرَ شهوانية .

وكانت هياكلُ ذلك الإلٰه تقوم على تلالٍ ذات هواءٍ مُنْعِش رطيب فوق سهولٍ محرقة ذات بَعُوضٍ مُفْسِد لبقـاع الدنيا ، وكانت تحاط تلك الهيا كلُ بغابِ الزيتون حيث يُسْمَعُ للحمائم العاشقـات سَجْعٌ وهَدِيل وحيث كانت الفَتَيَات ، اللائى يتألف من أجسامهن اللطيفة ضحايا حيـةٌ مُعَدَّة على الدوام لتكتوىَ بنيران إلٰهة الحب ، يَقْضِين نُهُرَهن فى تطريز الخِيام للغِياض ولياليَهن فى قَضَاء أوطار المؤمنين الذين يتقاطرون إلى هنالك .

وكان وتَدٌ صغير مغروزٌ فى الأرض ، رَمْزاً غليظاً لعضو التذكير ، يكفى لتلقين مبدأ عَشِيرا وتقديس الغابة .

وغَـدَت تلك العِهَاراتُ المقدسة تكتسب شكلاً كريهاً عنـد ما صار الخِصْيان ، لا النساء ، هم الذين يبيعون أنفسَهم من المؤمنين فى ليـلِ الغـاب الكثيف الفاتن ، وعلى ما كان من نَعْتِ الأنبياء لهؤلاء الخِصْيان بالكِلاب وعلى ما كان من حَظْر نَذْر أُجُور هؤلاء الفاسقين لم ينفكَّ بنو إسرائيلَ عن مضاجعتهم ، فمن أَجْـل هـذه المُنْـكَرات وَصَفَ الأنبيـاء إشَعْيـا وإرْمِيا ، وحِزْقِيالُ على الخصوص ، أُورَشَلِيمَ بالمدينة العاهرة التى لا تَشْبَع من الفجور .

قال يَهْوَه لتلك المدينة الأثيمة : « أتَّكَلْتِ على جمالك وزَنَيْتِ على اسمك وسَكَبْتِ فواحِشَكَ على كل مجتازٍ كان له ما تبتغين ، وأخذتِ من ثيابكِ فصَنَعْتِ لك مَشَارِفَ مُلَفَّقَة الشُّقَق وزَنَيْتِ فيها زِنىً لم يكنْ ولن يكونَ » .

ويَهْوَه ، ذلك الذى بدا كثيرَ الغَيْرَة للمعبودات المنافسة ، كان الإلهَ الذى يتخذه الأنبياء لدعوة بنى إسرائيلَ إلى مبدأ التوحيد السامِىّ .

والأنبياء كانوا يختارونه لأنه الإلهُ القوميُّ ، ولأنه ، وقد تَشَخَّص الشعبُ فيه ، حَكَمُ بنى إسرائيلَ فى السَّرَّاء وفى الضَّرَّاء فكان له من النصيب فى الارتضاء به وحدَه أكثرَ مما بغيره .

وكان نشوء يهْوَه فى سيناء بسبب الهَوْل الذى أوجبه فى بنى إسرائيلَ منظرُ ما يجْهَلَه وادى النيل من مناظر عواصف الجبل المرهوبة .

وكان يَهْوَه فى بدء الأمر إلهَ الجوِّ فقط ، وكانت الصاعقةُ والرياحُ والسُّحُب تُعَدُّ جيِادًا له ، رُسُلًا له ، دلائل عليه .

وقد مُثِّلَ يَهْوَه فى تابوت العهد بحجرين سقَطا على الصحراء تحت نظر بنى إسرائيلَ المبهوتين .

ولا يزال يَهْوَه يتَجلى فى عمود الدُّخان وعمود النار اللذين كانا دليلَيْن لبنى إسرائيلَ فى التِّيه مع صدورهما عن الريح التى تَعْبَث بالصحراء .

وفى جميع أسفار التوراة ، حتى فى أحدثها ، ترى العوارضَ الجوية ملازمةً لذلك الإله مخبرةً به على الدوام .

وقد أنزله إيلِيَّا على الهيكل فى صورة حمامة ولَقِيَه على جبل الكرْمل فى نسيم خفيف ، وسَمِعَ أيوبُ صوتَه يخْرُج من عاصفة .

وفى المزمور الثامنَ عشرَ ذُكِر ظهورُ ذلك الإلٰه كما يأتى :

« سطع دُخَانٌ من أنفه ومن فِيهِ نارٌ آكلةٌ ، جَمْرٌ مُتَّقِد ، طأطأ السماواتِ ونَزَل والضَّبَابُ تحت قدميه ، رَكِبَ عَلَى كَرُوبٍ وطار وخُطِفَ على أجنحة الرياح ، جَعَل الظُّلْمة حجاباً له مِظَلَّةً حوله ، ظلامَ المياهِ ودَجْنَ السُّحُب ، من بهاء حَضْرته مَرَّت سُحُبُهُ ، بَرَدٌ وجَمْرُ نارٍ ، أَرْعَدَ الربُّ من السماء وأَسْمَعَ العليُّ صوتَه ، بَرَدٌ وجَمْرُ نارٍ » .

ولم يَنْشَب ذلك الإلٰه الذى هو وليدُ هَوْل البادية أن عُدَّ بين بنى إسرائيلَ إلٰهاً خاصًّا بهم ، وإن شئت فَقُلْ مَلِكاً قوميًّا لهم .

ومن العادات العامة بآسية ، حتى فى مصرَ ، حتى لدى جميع الأمم القديمة ، أن كان لِكُلِّ مدينة ، لِكلِّ قبيلة ، إلٰهُها الخاصُّ الحافظ ، مع اعترافها بطائفةٍ من الآلهة ، فكان لمؤابَ الإلٰهُ خَمُوسُ ، ولصُورَ الإلٰهُ مِلْكارْت ، وللفلسطينيين الإلٰهُ داجُون ، ولبنى إسرائيلَ الإلٰهُ يَهْوَه .

ولم يَعْبُد بنو إسرائيلَ ، حتى دَوْرِ الإسَارَة ، حتى عند أكثر أنبيائهم توحيداً ، إلٰهاً يمكن أن يكون ربَّ الأمم الأخرى ، ولم يكن لإصلاحات الأنبياء غيرُ صِبْغَة محلية فى كلِّ حين ، وكلُّ ما كان يَطْلُبه هؤلاء الأنبياء هو أن تَسُودَ بنى إسرائيلَ عبادةُ يَهْوَه على حساب المعبودات الأجنبية ، ففى فلسطين لم يفكر أحدٌ فى إلٰه أزلىٍّ شاملٍ قبل إشَعْيَا وإرْمِيَا ، أى نَبِيَّىِ المَنْفَى الكبيرَيْن اللذين لم يكادا يُبْصِران تلك النتيجة المَجيدة .

وعلى ما فى أسفار اليهود من دفاعٍ عن أفضلية يَهْوَه لم تُمَار هذه الأسفارُ قَطُّ فى وجود آلهة أجنبية .

جاء فى سِفْر التَّثْنِيـة : « أىُّ شعبٍ كبير ذى آلهـة قريبة منـه قُرْبَ يَهْوَه منا حينما نَبْتَهِل إليه فى كلّ مرة » .

وسِفْرُ التَّثْنِية هذا يأمر بنى إسرائيلَ بهـدم جميـع مُدُن الشعوب المغلوبة وبيوتِ عبادتها وتحطيمِ أصنامها لـكيلا يُضْطَرّوا إلى خدمة آلهةِ البلدان الأجنبية ، ومعنى هذا أنه لولا هذا التخريبُ لاقتضى انتحالُ الآلهـة التى تشتمل عليها تلك المَحَالّ بطبيعة الحال .

إذَنْ ، أضحى يَهْوَه إلٰهَ بنى إسرائيلَ القومىّ ، بَيْد أنه كان لا مَعْدِل لهـذا الإله ، مع غَيْرَته ، عن العيش متفاهماً هو وطائفةٌ من الآلهة والإلٰهات ، والحيوانات المقدسة كالعجل والثعبان ، حتى الزمنِ الذى أدّى فيـه تَطَوُّرُ بنى إسرائيلَ الدينىّ إلى عودة هذا الشعب إلى ميوله الأولى التى أفسدتها الإقامة بمـا بين النهرين ، أى إلى التوحيد السامىّ .

وكان يَهْوَه ذلك ضارياً على الخصوص ، فالدماء إذا لم تُرَقْ والشحمُ إذا لم يَقْتُرْ على المَذْبح لم يَرْتَضِ .

وكانت تُقَدَّم إليه قرابينُ عظيمةٌ ، وبَلَغَ ما ذبحـه سليمانُ دفعةً واحدةً من الثِّيران والخِرْفان الـكثيرة ما ظهر معه المذبحُ النُّحاسىُّ ، الذى يُذْبَح عليه عادةً ، صغيراً جِدًّا فجلس هذا الملكُ فى فِناَء الهيـكل وهو يذبحُ أو يأمر بالذبح بلا انقطاع مدةَ أسبوعٍ كامل ، فبلغ ما ذبحه ، بحسب رواية أخباره ، اثنين وعشرين ألفَ ثَوْرٍ ومئةً وعشرين ألفَ خَرُوفٍ إرضاء لمُيُول إلٰهِه الدامية .

ولم يكن يَهْوَه ليرتضىَ بالقرابين الحيوانية وحدَها ، بل كان لا بُدَّ من تقديم القرابين البشرية إليـه ، ودامت هذه العـادةُ لدى بنى إسرائيلَ طويلَ زمنٍ ،

فضَحَّى يَفتَاحُ بابنته ، وكاد إبرٰهيم يُضَحِّى بابنـه ، وضَحَّى صموئيلُ بملِك العمالقة أَجَاجَ فقدَّمَه قِطَعاً إلى يَهْوَه فى الجلجال .

وتَتَجلى سَجِيَّـةُ يَهْوَه الدامِيةُ فى مُعْظَم أوامره إلى شعبـه ، وقد قال إلى الشعب المختـار :

« إذا ما دخلتَ مدينةً لم يَفُتْكَ أن تقتلَ سكانَها بحدِّ السيف ، وأن تستأصلَهم أطِلَّة الدَّم ، وأن تُبيدَ كلَّ ما يكون فى تلك المدينة وأن تَذْبح حتى بهائمَها » .

فهذا هو المعبودُ الهائل الذى كان يسوعُ الحليمُ يُسميه « أبى » ، وأمامَ هذا المعبود تَضُمُّ النساء النصرانياتُ الناعماتُ أيادىَ أطفالهن منذ عدة قرون .

ومع ذلك رأت النصرانيـةُ بالغريزة ألا تستعملَ كلمـة يَهْوَه منتحلةً كلمة الرَّبِّ على العموم ، وهذا الاسم رائعٌ مُبْهَمٌ كاسم إلُوهيم الرَّعّاد .

ومن العمل المُطَول الذى لا نصنعه هنـا أن نتعقب خُطوةً خُطوةً التطورَ الطويل الذى تحولَ به سنةً بعد سنة وقرناً بعد قرن الإلٰهُ الطاغيةُ المُمَثَّل بحجرين ، يَهْوَه سيناء ، والذى بدا به فى بدء الأمر معبوداً ضارياً مُشْبَعاً من ضحايا داودَ وسليمان ، والذى ظهر به بعدئذٍ أزلىَّ إشَعْيا المُدّعِى بحُكْم العالم ، والذى تجلَّى به فى نهـاية الأمر أباً ليسوعَ فَمَزَجَ بطبيعته هذا الصالحُ الحليم ، كما أننـا لا نُبَيِّنُ هنا كيفيةَ ظهور بعض العقائد النصرانية ونشوءَ هذه العقائد كالبعث والحياة الآخرة التى سكتت عنها التوراةُ تقريباً ، وليس الموت لدى بنى إسرائيلَ غيرَ نوم ٍ عميق بلا يَقظة ، وفى هذه الحياة الدنيا ، لا فى الحياة الآخرة ، ما يجب أن يتحقق وَعْدُ يَهْوَه ووعيده حَوْلَ مراعاة الشريعة الشديدة .

ودام ، حتى زمنِ الإسَارَةِ ، دين اليهود القائل بتعـدد الآلهـة كما وصفناه ،

وذلك بعباداته الكثيرة وطقوسه المتنوعة وأساطيره المتكاثفة .

ثم كانت خُطوةٌ نحو التوحيد ، وكانت هذه الخطوة من المفاجأة ما يُظَنُّ معه أنها وليدةُ طَفْرةٍ حقيقية لا تطورٍ منتظم .

وثُغْرَةٌ كتلك مما كان لا يَتَجلى فى تاريخ بنى إسرائيلَ ولا فى فكرهم ، بل فى أسفارهم المقدسة .

إن التوراةَ كتابٌ أُلِّف فى أدوار مختلفة أشدَّ الاختلاف ، وإن التوراةَ مملوءةٌ بالارتباطات والاختلاطات والروايات المرتبة المصنوعة بعد قصيرِ وقت ، ويَعْقُب شعرُ إشَعْيَا الروحانىُّ السامىُّ فى تاريخه ومكانه فى العهد القديم إشراكُ الأجيال القديمة وأقاصيصُها الجاهلية ، ومما لا رَيْبَ فيه وجودُ ثُغْرَةٍ عِدَّةِ قرون فى ذلك لا تَسُدُّها وثائقُ التوراة .

وليس علينا أن نبحث هنا كيف يمكن ذلك ، فقد سِرْنا واليهودَ حتى الزمنِ الذى عادوا لا يؤلفون فيه أمةً فلا نَرْسُم التحولاتِ التى عاناها فكرُهم بتعاقب الأجيال بعد ذلك ، وقد بَيَّنَّا ، بما فيه الكفاية ، التطورَ الذى أضحت به المذاهبُ الكلدانية دينَ اليهودية بعد أن انتحلها هذا الشعبُ الجديد ، فمن مجاوزة حدود هذا الكتاب أن نُبَيِّنَ كيف صار دينُ اليهود المشتقُّ من المعتقدات الكلدانية ، الدينَ الكبيرَ الذى هَيْمَن على أمم أوربة المتمدنة نحوَ ألفى سنة ، وذلك باقترانه بالأساطير الآرية .

الفصل الرابع

الآداب العبرية

إذا كان اليهود قد عطِلوا من الفن والصناعة عَطَلاً تامًّا ، وإذا كان اليهود قد ظلُّوا بمَعْزِلٍ عن كلِّ جمال يفوق المالَ ، فإنك تجدُ لهم آداباً غنيةً مُنوّعة يجْدُر ذِكْرُ بعض أجزائها .

وليست تلك الظاهرةُ خاصةً ببنى إسرائيلَ فقط ، فهى تُشاهَد لدى جميع الأمم الساميَّة ، ولا سيما العربُ الذين كانوا قبلَ الإسلام ذوى شعرٍ بعيدِ الصيت حقًّا ، على أن الشعر ، مع الموسيقَى ، فنٌّ جميع الأمم الفطرية ، والشعرُ مع بُعْده من التقدم موازياً لتقدم الحضارة تجِدُه يَضِيقُ أهميةً وتأثيراً كلما ارتقت الأمم ، فقد اقتضت الحضارةُ قروناً طويلةً لاختراع الآلة البخارية واكتشاف سُنَن الجاذبية مع إمكان ظهور قصائدَ كالأُوذيسة والإلياذة وأغانى أُوسيان فى أدوار الجاهلية .

وحالت حياةُ البداوة ، على الدوام ، بين أهل البدْو دون ظهورِ فنونٍ شاخصة وأدت إلى عدم اكتراثهم لتركيب الخطوط المنسجمة ، وهى لم تحْفِزْ ملَكاتِهم إلى غير سبيل الشعر ، ولا سيما الشعرُ الغِنائىُّ .

وأقدمُ أغانى العرب هى الأجمل ، ولما أقام العربىُّ بالمدن بعدئذٍ حافظ على

عادة الذهاب إلى تحت الخِيام ليُقَوِّىَ وَحْيَه ، والعربىُّ ، فى قصده إخوانَه الأعرابَ ، يكون كما لو ذهب إلى المدرسة ليتعلم اللغة الفُصْحَى والوزنَ الرَّنَّانَ وأَخْيِلَة البطولة .

وعند العِبْريين سار الشعراء أو الأنبياء على سُنَّة الشعوب الساميَّة ، حتى فى زمن الرَّخاء ، حتى فى زمن الجاه ، حتى فى أيام العهد المَلَكىّ الأولى ، كان أولئك الذين يَسْمَعون أقوى الكلام يتَمَثَّلون هذا الكلامَ فى العُزْلة فيبدُون من ذوى الهوَس والجُرْأة والخيال .

وللساميين فى البادية فتنةٌ لا تقاوَم ، فكان يُحَنُّ إلى آفاقها الواسعة حتى فى قصور الأَرْز والذهب التى شادها سليمان ، والباديةُ كانت توحى إلى كِبار مُرَتِّلى بنى إسرائيلَ ، كانت تُوحِى إلى أيوبَ وإشَعْيا وإرْمِيا وحِزْقِيال ؛ وأقدمُ المزامير أسْنَى من غيره بدرجات . والمزاميرُ وُضِعَت ، لا رَيْب ، تحت الخيْمة قبل الاستقرار النهائىّ بفلسطين .

وعند بنى إسرائيلَ أسفر الشِّعر الغِنائىُّ ، الممتازُ جِدًّا لدى جميع الأمم الساميَّة ، عن آثار لا مثيلَ لها ، وعلى ماتراه من تنوع فروع الأدب الأخرى عند بنى إسرائيلَ لا تَعْدِل هذه الفروعُ ذلك الشعرَ الغنائىَّ أبداً ، وإذا كانت فروعُ الأدب تلك عزيزةً علينا فلِما لم تترك الأمم المنتسبةُ إلى الحضارات من المُدَوَّنات بمقدار ما كتبه اليهود .

وتشتمل أسفار الكتاب المقدس ، وهى لا تُمَثِّل سوى قسمٍ من آثار بنى إسرائيلَ الأدبيةِ ، عَلَى نماذجَ لمُعْظَم الأنواع التى مارستها الروحُ البشرية .

وفى التوراة تُبْصر التاريخَ والأساطيرَ والأقاصيصَ الخياليةَ والقصائدَ

الرِّعائية والقِطَع الروائية والنبَذَ التعليمية والأناشيدَ الدينية والأغانىَ الحربية والقصائدَ الغَزالية والمجموعاتِ الحِكْمِيَّة والنَّسَبِيَّة والشرعية الخ ، فنظر إلى ذلك نظرةً خاطفة .

وأهمُّ الأسفار التاريخية هى أسفارُ القضاة والملوك والأخبار وأَسْتِير ونَحَمْيا والمكَّابيِّين .

وأما أسفارُ موسى الخمسةُ التى كانت تُصَنَّفُ بين تلك الأسفار فيما مضى فتتألف من أساطيرَ كلدانيةٍ ومن عِدَّةِ قوانينَ دقيقةٍ يَرْجِع نشوءها وتطبيقها إلى زمن أحدث من الزمن الذى وُصِف فى سِفْر التكوين وسِفْر الخروج ، وكُتبت تلك الأسفارُ الخمسة فى عهد الملوك ، ويمتاز سِفْر التَّثْنية ، الذى هو أحدُ تلك الأسفار والذى هو أحدثُها ، من بقية تلك الأسفار بروحه المِثالِيَّة .

وليس من الممكن عَدُّ موسى مؤلفاً لتلك الأسفار الخمسة فقط ، بل إن موسى شخصٌ أسطوريٌّ أكثرَ من كونه شخصاً تاريخيًّا ، أى إن ذاتيته رُتِّبَتْ كما رُتِّبَت ذاتيةُ بُدَّهَة (بوذا) بعد حين .

ومما يلاحَظُ فى جميع الأسفار الإسرائيلية ، التى تُعَدُّ كتباً تاريخية ، ميلٌ ظاهرٌ إلى استخراج نظريةٍ من انتظام الحوادث ، وهذه الأسفارُ لم تُكْتَب لحفظ ذكرى الوقائع الممتعة فقط ، بل كانت غايتُها إثباتَ شىء ، وهذه الأسفارُ جميعُها إذْ وُضِعَت بصيغة الجَزْم بدا حسنُ النية فيها هزيلًا .

وما تركه العِبْريون لنا من تاريخهم فقد دَوَّنَه أحبارٌ مَلَكِيُّون كانوا يهدفون إلى نَصْر مبدأ الحكومة المَلَكية الإلهية .

وكان هؤلاء لا يألون جُهْداً فى إظهار بنى إسرائيلَ مَسُوسِين من إلههم

القوميّ يَهْوَه الذى يَعُدُّ القضاةَ أو الملوكَ مترجمين مفاوضين له بكثرةٍ ودالة ، وكلُّ عصيانٍ ليَهْوَه كان يؤدى إلى جزاء فَوْرِيّ وكُلُّ تَقْوَى نحوه كانت توجب أعظمَ رخاء .

وكان يَصْعُب على المؤلف إذا ماتناول الحوادث الحديثة المعروفة جداًّ أن يُشَوِّهها تشويهاً كليًّا فيكتفى بجعل تفسيرته التى يُمْلِيها الهوَى ملائمةً لها .

ويمكن أن يُعتمد ، تقريباً ، على كُتَّاب اليهود فى مُعْظم تاريخ بنى إسرائيلَ بعد شاوُل ، وتتجلى مَزِيَّتهم الكبيرة ، ولكن مع غير شعورٍ ، فى حفظهم لنا حفظاً صحيحاً وصفَ المجتمع الذى تمّت فيه الحوادثُ ، لا هذه الحوادث على الدوام .

ونَجِدُ جميعَ معتقدات اليهود فى أسفارهم حيث أُودِعَتْ منذ عِدَّة قرون ، ولكن حيث كان عَمَى الوساوس الدينية يَحُول دون رؤيتها .

وظلت أوربة النصرانية ، زمناً طويلاً ، تقرأ كتب مؤرخى اليهود بالروح التى أرادها هؤلاء المؤرخون ، وما وَدَّه أولئك المؤرخون من تمويهٍ على معاصريهم ارتضاه أمثالُ أُغُوسْتِنْ وبَسْكال وبُوسُويه وشاتوبريان أكثر من ارتضاء ذلك الشعب الجاهلى المتعصب الذى حاولوا إقناعَه .

وكُتاب اليهود إذا لم يكونوا مؤرخين صادقين كانوا وَصَّافِينَ أوفياءَ ، ومن الوثائق التى لا يَعْدِل قيمتها شىءٌ ما أَتَوْا به من الأوصاف الساخطة حَوْلَ وثنية بنى إسرائيلَ المتأصلة ، والأوصاف الساذجة للطبائع الرِّعائيَّة ، وسلاسلِ الأنساب التى لا حَدَّ لها ، وسِمَات الأخلاق الهائجة .

ومن الناحية الأدبية عرَضُوا علينا صَفَحاتٍ جميلةً إلى الغاية ، وتُعَدّ فصول سِفْر التكوين الأولى أثراً ممتازاً للعظَمة والبساطة ، وعلى هذا الوجه وبمثل هذا العَرْض وهذه اللغة يمكن المرء أن يَتمثل بدء الرواية البشرية الكبرى .

وإذا كان الأساسُ كلدانيًّا فإن الشكل عبْرِىّ ، وكان لا بُدَّ من قناعة السامىّ لوصف تلك المبادىء الهائلة فى بضع كلماتٍ ومنحِها ،حتى بالوسائل الساذجة ، مظهراً غريباً من ظاهر الحقّ والحياة .

وبجانب أسفار العِبريين التاريخية والخرافية تَجِدُ القِصّةَ الصِّرْفة التى لا يُزْعَم صدقها والتى لا يُبالى فيها بالغَلَط التاريخىّ ، والتى لا غاية لها سوى افتتان القارىء وثقافته الخلقية فى بعض الأحيان .

وَحَذِقَ كُتّابُ اليهود ذلك النوعَ ، فأشْرَبُوه حياةً وطبيعةً وفِتْنةً فى الجزئيات على وجه خاصّ .

وإذا عَدَوْتَ ماقد تَشْعُر به من اللذة فى قراءة تلك الأقاصيص المؤثِّرة أو الفاجعة كقصة يَهُودِيت ورَاعُوت وطُوبيّا وأسْتِير الخ ، وجدتَها تشتمل على تفصيلاتٍ مهمة عن الطبائع ، وذلك كالوَسْوَاس الذى يساور يَهُوديت ، مع استعدادٍ لاقتراف جُرْم القتل ، حَوْلَ أكل لحومَ الحيوانات التى لم تذبح وفْقَ الطُّقُوس ، وذلك كالوجه الذى دَعَتْ به رَاعُوتُ ،بُوعَزَ ، أقربَ إنْسانٍ إلى زوجها فوجب من حيثُ النتيجةُ أن يتزوجها بُوعَزُ ذلك وَفْقَ شريعة إسرائيلَ على الرغم من الفرق العظيم فى مقاميْهما الذى يَجْعَل تلك الفتاةَ كثيرةَ الخجل .

وقصةُ راعُوتَ هذه من أطرف الأقاصيص الرِّعَائيّه التى كُتِبَت .

وإن خُلُق تلك الباسلة الناعمَ الخليّ المحتشم ، وإن خُلُق بُوعَزَ النبيلَ المستقيمَ الصادق ، وإن غَمّ نُعْمِي الممزوجَ بالتسليم ممّا صُوِّر بسلامةِ ذوق ورقة صنعةٍ فيلوح أنه آخِرُ كلمةٍ للفنّ ، وإن السهول المُثْقلة بالسنابل الذهبية مع نشاط الحاصدين الجافى وراحتهم بعدئذٍ تحت السماء ذاتِ الكواكب وفى جَلال ليالى الشرق مما عُرِضَ كدائرةٍ للقصة .

ومن الطرافة أن يُنْتِج اليهودُ آداباً خفيفة عاطفيةً ذاتَ عَفاف على الرغم من تَحَلُّلهم ، وما عندهم من أخبار الدّعارة تَجِدُه فى تاريخهم الخاصّ ، لا فى كتبهم التى هى وليدةُ الخيال الخالص .

وتجد سِفْر نشيد الأناشيد ، الذى هو أكثرُ أسفارهم شَهْوَانِيَّةً ، يَصِفُ أشدَّ الغرام بعباراتٍ شِعْرية أكثر منها شَبَقِيَّة ، وليست لذةُ الحواسّ وحدَها هى موضوعَ هذا الشعر الفتّان ، وهذا الشعرُ يأخذ بمجامع القلوب على حسب التعبير المألوف ، وفى هذا الشعر ترَى سُلَامِيَةَ عاشقةً رقيقةً متوقدةً معاً ، وترى التعبيرَ عن نار الرغبة فيها مُقَيّداً بصُوَرٍ تُنْقِذ بها وُعُورة بعض المُيُول .

ولم يَجِد الحبُّ المُنَغَّص من النَّبَرات المثيرة فى أيِّ كتاب مثلَ ما فى سِفْر نشيد الأناشيد ، ولم يُسْتَرِ الوَلُوعُ العنيفُ بأرقِّ الصُّوَر فى أيِّ كتابٍ مثلَ ما فى سِفْر نشيد الأناشيد .

وسِفْر نشيد الأناشيد هو أجمَلُ ما انتهى إلينا من الشعر الغرامىّ السامىّ ، أجَلْ إن الآثار التى هى من هذا الطِّراز غيرُ قليلةٍ لدى العرب الذين لم يَتَغَنَّوْا بغير المرأة والجياد والملاحم ، غير أن الحواسَّ هى التى كانت تستحوذ على هؤلاء ، فلا تكاد ترى فى شعرهم اِلخيارَ والتفضيلَ ، أى المشاعرَ ، بل كانوا يصنعون

ما يُثير اللذات ، فتبدو لهم كلُّ امرأةٍ حسناء إذا كانت فتاةً حَسَنَةَ الخِلْقَة .

وفى سِفْر نشيد الأناشيد تُبْصِر ، بالعكس ، أن شلاميةَ وراعيها كانا يتحابّان حُبًّا خالصاً فيألمان كلما تباعدا ، ومن المحتمل أن يكون هذا المبدأُ ، الذى هو أقربُ إلى الشعور الروائىّ فى أيامنا منه إلى النعيم الحسّىّ الشرقى الأعمى ، أبرزَ مافى ذلك الشعر الغرامىّ .

وأرادت الكنيسةُ النصرانية أن ترى فى ذلك النشيد الغرامىّ الولهان أثراً فى الأخلاق الزاهدة مُصَوِّراً ضروبَ النعيم عند الاتصال الوثيق بالله .

ولا نرى مثالًا أبرزَ من ذلك على زوجيَّة الأحكام البشرية ، وقد خَلقت نساءٌ طاهراتٌ زاهداتٌ فى قرونٍ لِيُفكّرن فى صَوْغ جملٍ متأججةٍ كالجمل الآتية :

« فى الليالى على مَضْجَعى التمستُ مَنْ تُحِبُّه نفسى ، التمستُه فما وَجَدْتُه » .

« . . . هَلُمَّ ياحبيبى ، لِنَخْرُجْ إلى الصحراء ولْنَبِتْ فى الضِّيَاع ، فَنُبَكِّرَ إلى الكُرُوم وننظرَ هل أفْرَخَ الكَرْم وهل تَفَتَّحَت زهورُه وهل نَوَّرَ الرُّمَان ، وهنالك أبْذُلُ لك حُبِّى » .

ولا يَعُوزُ الآدابَ اليهودية آثارٌ خُلُقيةٌ خالصة مستقلة عن التصانيف الدينية الكبيرة ، فيُعَدُّ بعضُ الأسفار ، كسِفْر الأمثال وسِفْر الجامعة وسِفْر الحكمة ، مجموعات أمثالٍ عملية مُعَدَّة لتوجيه سَيْر الحياة ، ولكن من غير كبير صلةٍ بالآلهة مهما كان نوعها .

والروحُ العامة فى تلك الأمثال هى أبيقورية ارتيابية ، وما فيها من قولٍ مُؤَكّد بأنَّ أوضحَ واجبٍ علينا هو أن نتمتع بالحياة العتيدة لعدم وجود شىء وراءها ، وبأن من الجنون أن يُضَحّى بالساعة الراهنة فى سبيل أوهام باطلة ، لم

يَسْبِقه ماأتى به أناكْرِيُونُ وهُوَارَسُ فى العالَم الوثنىِّ القديم .

وفى تلك الأسفار ترى درجة عَطَل اليهود من كلِّ أملٍ فيما وراء القبر .

جاء فى سِفْر الجامعة القولُ الجافى الآتى : « إن الكلب الحىِّ خيرٌ من الأسد الميت » .

ولا تَجِدُ فى سِفْر الأمثال ، كما أنك لا تَجِدُ فى سِفْر الجامعة ، قولًا عن نظرية الكُتَّاب المَاكيين فى عَدْل يَهْوَه بعد هذه الدنيا فيكافئ الأبرارَ ويجازى الأشرار .

جاء فى سِفْر الجامعة : « يُوجَد صِدِّيقون يصيبُهم مثلُ عَمَل الأشرار ويُوجَدُ أشرارٌ يصيبُهم مثلُ عمل الصِّدِّيقين .

وفى كلِّ زمنٍ كان لمجموعات الأمثال أهميةٌ عظيمة فى آداب كلِّ أمة ، وذلك لِما تؤدى إليه من النفوذ فى فكرها الصميمىّ .

ولم تَشِذَّ أمثالُ بنى إسرائيلَ عن ذلك .

ولسنا هنالك أمام عمل مقرَّر قائل بنشر مايَصْعُب قبولُه من الحقائق ، ولسنا هنالك أمام رُؤَى الأنبياء العظيمة الشخصية .

ومن خلال تلك الأمثال ، التى لم تكن من وَضْع رجلٍ واحد والتى كانت تتداولها الأفواه فتتكاثف فيها تجربةُ طويل القرون ، نُبْصِر فكرَ بنى إسرائيلَ الحقيقىَّ .

وكان ذلك الفكر نفعيًّا عمليًّا ، وهو الفكر الذى سيطر على شعب إسرائيلَ منذ دور الفتح ، منذ الزمن الذى عَلِمَ فيه هذا الشعبُ الشَّهْوَانىُّ قيمةَ جميع خَيْرات الأرض فجعلَتْه مُتحرزاً ماهرًا طامعاً جَشِعاً فى الربح ضَيِّقاً فى آفاقه غيرَ

مستعدٌّ للتضحية بفائدة الساعة الحاضرة فى سبيل منافِع حياةٍ قادمة غيرِ محققة وفى سبيلِ أَنْعُمِ إلهٍ مُثِيب .

« ... الحكيمُ يخافُ فيَجْتنب الشرَّ ، والسفيهُ من يَسِير على غير ذلك » .

« ... الغنى يُكْثِر الأخِلاَّء والفقيرُ يفارقه خليلُه ، وجميع إخوة المُعْوِز يُبْغِضُونه » .

« ... فى كلّ تَعَبٍ منفعةٌ ، وكلامُ الشَّفَتَيْن إنما هو إلى الفقر » .

« ... اذْهَبْ إلى النملة أيها الكسلان ، تأَمَّلْ طُرُقَها وكُن حكيماً » .

« ... العاملُ بيدٍ رِخْوةٍ يفتقر ، أما يَدُ المجتهدين فتُغْنى » .

« ... من يَجْمَع فى الصيف فهو ابنٌ عاقل ومن يَنَمْ فى الحصاد فهو ابنٌ مُخْزٍ » .

« ... تُوجَد طريقٌ تَظْهَر للإنسان مستقيمةً وعاقبتُها طُرُقُ الموت » .

وتمتدح الأمثال نوعاً من الحكمة ليس سوى الحَذَر الدنيوىّ ، ولكن مع سُمُوِّه أحياناً كما يَبْدُو ، ومن ذلك :

« قليلٌ مع عَدْلٍ خَيْرٌ من كثيرٍ مع جَوْرٍ » .

بَيْدَ أن سِفْر الجامعة أكثرُ ارتياباً ، فقد جاء فيه :

« قلتُ فى قلبى إن الذى يَحْدُث أهل يَحْدُث لى أنا أيضاً إذَنْ ، فلِمَ حِكْمَتِى هذه الوافرة ، فقلتُ فى قلبى هذا أيضاً باطلٌ » .

وقد خُلِطَ سِفْر الجامعة بالمَلِك سليمانَ عن غَلَطٍ يَتَعذر إدراكُه ، فلا شىء يبتعد عن ذلك السِّفْر العسير العميق أكثرُ مما نَعْرِفه من حياة هذا الملِك وأخلاقه ، وإذا كان واضعُ ذلك السِّفْر قد أجرى أقوالَه على لسان ذلك الملك القوىّ

فلافتراضٍ جارٍ فى الآداب ولرغبةِ ذلك المؤلف فى مضاعفة الوزن ، والرجلُ لكى يَدَّعِيَ بأنه أزال وَهْمَه عن كلِّ شيء فى هذا العالَم يجب عليه أن يَعْرِف كلَّ شيء كالغِنَى والسلطان وجلالِ العرش وأُبَّهةِ القصور ومَلَقِ الرجال .

جاء فى سِفْر الجامعة : « كنتُ مَلِكا . . . فزِدْتُ عَظَمة ونُمُوًّا على جميع الذين كانوا قبلى . . . وجَمَعْتُ لى فِضةً وذهباً مع أمـوال الملوك والأقاليم . . . وكلُّ ماابْتَغَتْه عيناى لم أَدَعْه يفوتهما ، ولا مَنَعْتُ قلبى من الفرح شيئاً . . . فإذا الجميع باطل » .

ولم يشتمل سِفْر الجامعة على جميع مايَرْنو إليه أقصى الطموح من المحاسن فقط ، بل يشتمل أيضاً على بصيرة واسعة ، فقد نَفَذَ إلى أساس الحكمة البشرية .

فمما جاء فى سِفْر الجامعة : « رأى قلبى كثيراً من الحكمة والعِلم ، ووَجَّهْتُ قلبى لمعرفة الحكمة والجنون والحماقة » .

وبَطَلُ ذلك السِّفْر ، وهو مؤلفه ، كاملٌ ، فلا يَعُوزُه شىء ، وهو يَمْلِك كلَّ ما يجوز دعوتُه بالسعادة سواء أمن الناحية الذهنية أم الناحية الجُثْمانية .

وإليكَ كيف يَرْجِع إلى نفسه فيسألُها وهو أَوْج السلطان وذُرْوة العِلم الإنسانىّ وهو فى سواء ألذِّ الشَّهَوات :

هل بلغ الغاية التى وُجِدَ من أَجْلِها فى العالَم ؟ أفَيَعْرِف هذا الهدفَ وحدَه ؟ ماهو أساسُ جميع الأشياء ؟ آلشرور ؟ أصاحبُ سِفْرِ الجامعة سعيدٌ ؟

جاء فى سِفْر الجامعة : « قلتُ فى قلبى من جهة أمور البشر إن الله يمتحنُهم ليُرِيَهم أنهم كالبهائم ، لأن مايَحْدُث لبنى البشر هو يَحْدُث للبهيمة وللفريقين ، حادثةٌ واحدة ، كما تموتُ هى يموتُ هو ، ولكليهما روحٌ واحدة ، فليس

للإنسان فضلٌ على البهيمة ، لأن كليهما باطلٌ ، كلاهما يذهب إلى مكان واحد ، كان كلاهما من التراب ، وكلاهما يعود إلى التراب » .

ولكن الأمر ليس كذلك تماماً ، فلا يشابه الإنسانُ الحيوانَ مشابهةً تامة لأن الحيوان يأكلُ ويتمتع بجميع حواسّه ويموت هادئاً غيرَ شاعر ، وإنما يَحْمِل الإنسانُ في نفسه بِذْرَةَ الألم الخفيّ الخالد .

وصاحب سِفْر الجامعة إذْ عَرَف أكثرَ من كلّ إنسانٍ ذلك الغمّ الغريب والأملَ القاهر والهمّ من العدم رَفَع صوتَه متحسّراً قائلاً .

« في كَثْرة الحكمة كَثْرة الغُمَّة ، ومن ازداد علماً فقد ازداد غمًّا » .

وتنحصر أخلاقُ صاحب سِفْر الجامعة والنصيحةُ التي يسوقها إلينا في تقريبنا ، إذا أمكن ، من دائرة اللاشعور المُوحِشة الهادئة وفي طَرْدنا من نفوسنا كلّ هَمٍّ حَوْلَ ماهو عادل أبديّ غير محدود ، وفي إغماض عيوننا وجعلِ أصابعنا في آذاننا وخَنْقِ الصوت المقطوع الرجاء في قلوبنا والتمتع بالأمور المحسوسة الملموسة التي نستطيع بها قضاء أوطارنا الجُثْمانية ومدارة كبريائنا.

جاء في سِفْر الجامعة : « ليس للإنسان خَيْرٌ من أن يأكل ويشرب ويُرِيَ نفسَه خيراً في تَعَبه ، رأيتُ هذا أيضاً أنه من يد الله » .

« . . . والأحياء يَعْلَمون أنهم سيموتون ، أما الأمواتُ فلا يَعْلَمون شيئاً ، وليس لهم من جزاء بَعْدُ إذْ قد نُسِيَ ذِكْرُهم » .

« حُبُّهم وبُغْضهم وغَيْرتهم قد هَلَكَت جميعاً ، وليس لهم حظٌّ بَعْدُ إلى الأبد ، في شيء مما يجري تحت الشمس » .

« فاذهبْ كُلْ خُبْزَك بفَرَحٍ واشْرَبْ خمرك بقلبٍ مسرور . . . ولتكن

ثيابُك بيضاً فى كلِّ حين ، ولا يُعوِزْ رأسَكَ الدُّهْنُ » .

« تَمَتَّع جميعَ حياتِك الفانية بالعَيْش مع المرأة التى أحببتَها وأُوتيتها تحت الشمس لتقضِىَ أيامَك الفانية ، فإن ذلك حَظُّك من الحياة . . . فليس من عملٍ ولا اختراعٍ ولا معرفةٍ ولا حكمةٍ فى الهاوية التى أنت ذاهبٌ إليها» .

تلك هى النصائحُ التى يأتى بها صاحب سِفْر الجامعة ، ويُسْتَشَفُّ من اللَّهْجة التى ذكرها بها أنه يَحْسُد بحرارةٍ من يَقْدِر على العمل بها .

وذلك لأنه يَشْعُر أكثرَ من أىِّ شخصٍ آخرَ بأنه مُقَيَّدٌ بالغُمُوم والرغائب التى يكافحُها ويَسْحَقها ويَسْخَر منها فاتراً حاقداً ، ولأنه يَمقُت ذلك العدمَ الذى يُبْصِره حَذِراً مذعوراً ، ولأنه لم يَتذوق بسلامِ المَسَرَّاتِ الماديةَ التى يَمْدَحها ، وهى مُسَمَّمَة عنده بالسؤال « لماذا ؟ » الخالدِ الذى يؤذى أنبلَ النفوس منذ قرون كثيرة .

جاء فى سِفْر الجامعة : قُلْتُ للضَّحِكِ فيكَ جنون ، وللفَرَح ماذا تَنفَع ؟ » .

« . . . وقلتُ فى قلبى إن الذى يَحْدُث للجاهل يَحْدُث لى أيضاً ، إذَنْ فلِمَ حِكْمتى هذه الوافرة ؟ فقلتُ فى قلبى هذا أيضاً باطلٌ » .

«فإنه ليس من ذكرٍ للحكيم وللجاهل كليهما إلى الأبد ، إذْ فى الأيام الآتية كلُّ شىء يُنْسَى ، وا أسفا ، يموت الحكيم كالجاهل » .

« فكَرِهْتُ الحياة إذ ساءنى العملُ الذى يُعْمَل تحت الشمس لأنه كُلَّه باطلٌ وكآبةُ الروح » .

ومذاهبُ التطور التى أُولِع بها فلاسفةُ زماننا مما كان صاحبُ سِفْر الجامعة

قد أبصره فلم تجد سوداؤه فيه سُلوانًا .

وذكر صاحبُ سِفْر الجامعة أنه إذا لم يَقْتطف فى هذه الحياة الدنيا ثمرةَ آثاره فإنه يتركها ميراثاً للأجيال القادمة ، وأنه إذا لم يَهْلِك تماماً فلِما يراه من بقاءفكره بعدَه ، وأن الفردَ إذا مابادَ فإن البشرية تظلُّ حيةً متقدمة ، وأنه لا يَضِيعُ أىُّ عمل عظيم ولا أىُّ جُهْدٍ وأنه لا عاملَ كثير الخضوع .

ولم يَكْفِ ذلك الفكرَ عنده أن يُعوِّض الإنسان من كَرْب الحياة العظيم ومن مداجاتها، فقد قال :

« وكَرِهْتُ جميعَ ماعانَيْتُ تحت الشمس من تَعَبى ، لأننى سأتركه لإنسان يَخْلُفنى» .

« ومن يَدْرِى هل يكون حكيماً أو أحمقَ ، مع أنه سيستولى على كلِّ عملى الذى أفْرغت فيه تعبى وحكمتى تحت الشمس ، هذا أيضاً باطل » .

وإليك نتيجةَ ذلك السِّفْر الذى لا يَعْدِله كتابٌ بُرُودَةَ تشاؤم :

« غَبَطْت الأمواتَ الذين دَرَجُوا من قبلُ على الأحياء الذين هم باقون حتى الآن ، وخيرٌ من كليْهما مَنْ لم يوجد حتى الآن ، لأنه لم يَرَ العمل الشِّرِّير الذى يفعله تحت الشمس » .

تلك هى آخر كلمةٍ لصاحب سِفْر الجامعة ، ولا تَظُنَّ أنه خَرَج من فيه الكلامُ النهائىُّ الآتى الذى تَسَرَّب فى سِفْره بتحشيةٍ صادرة عن تقوى، فجاء مكذِّباً له بأسْره :

« اتَّقِ الله واحفظْ وصاياه ، فإن هذا هو الإنسانُ كلُّه ».

وليس مافرَغْنا من تحليله أثرَ تسليم تَقِىٍّ ، وليس ذلك صوتَ تمرُّدٍ إلحادىٍّ

مادام التمرد غروراً ، وليس ذلك تجديفاً ، بل هو أسوأ من ذلك كلّه ، وذلك لأنك تَجِدُ الشهوةَ والحياة فى الألم الساخط وفى التجديف فيكون هذا كأملٍ خفىٍّ يُرَى من مخاطبة من يسمع بكلام الغضب .

وسِفْر الجامعة من أمَرِّ الإنكارات التى نَطَقَ بها كلُّ ذى شَفَتَيْن ، فهو أنشودةُ قُنُوطِ المحكوم عليهم بالهلاك الأبدىّ ، وهو ينفع كتابةَ قبرٍ للجنس البشرىِّ حينما تُسَجَّى الأرضُ الخالية من سكانها الأخيرين تحت كَفَنٍ من الجليد .

والذى سَتَرَ حتى يومِنا هذا مافى ذلك السِّفْر الباقى من الواقعية الباردة والطِّيَرة القاتمة هو ذلك الشعورُ الدينىُّ الذى ما انفكَّ يُشَوِّه التوراة منذ ألفى سنة ، فإذا ماتخلص المرء من الأباطيل المتأصلة استمع إلى سِفْر الجامعة منقبض الصدر بما يفوق الوصف ، وأيةُ فلسفةٍ أو أىُّ أملٍ يقاوم هذا التحليلَ الهائل ؟

والذى يُمْسِك البشرية فوق العدم هو حبُّ الاطلاع ، لا سرورُ الحياة على رأى ذلك الكاتب الكئيب .

« جميعُ الأنهار تجرى إلى البحر ، والبحرُ ليس بملآن . . . لا تَشْبَع العين من النظر ولا تمتلىء الأذن من السماع » .

وإذْ ليس من الممكن أن يكون هذا الشعورُ أجوفَ فارغاً غير مُثْمِر أضاف صاحبُ سِفْر الجامعة إلى ذلك قولَه :

« ما كان فهو الذى سيكون ؛ وما صُنِعَ فهو الذى سيُصْنَع ؛ فليس تحت الشمس شىءٌ جديد » .

« رُبَّ أمرٍ يقال عنه : انْظُرْ ! هذا جديدٌ ؛ فهو قد كان فى الدهور التى

سَلَفَت قبلنا » .

ويُعَدُّ سِفْرُ أيوبَ عَذْباً مُعَزِّياً بجانب سِفْر الجامعة .

بَيْدَ أن ما فى القسم الأول من سِفْرِ أيوبَ من الضِّيق الخُلقىِّ الكريه لا يداوَى إلا بثقةٍ عمياءَ بالله ، وعند مؤلف هذا السِّفْر أن ما يمكننا أن نناله من السَّكينة هو فى العدول عن البحث وفى العدول عن الفَهْم وفى الإذعان للسُّنَن التى تُسَيِّر مصايرَنا من غير حبّ شديد للاطلاع ومن غير تذمر .

وبأىِّ دمٍ باردٍ وبأىِّ إصرار وبأىِّ حِذْق وبأىّ بَصَر حديد استَبَرَ متشائمو اليهود أولئك جروحَنا الأبدية ؟ .

لمّا يَجِدِ العِلمُ ما هو مُقَرَّر فى الجواب عنهم مع انقضاء ما يزيد على ألفى سنة !

إن الوهم التقىّ فى سِفْرِ أيوبَ وإن الوهم الشَّهْوانىّ فى سِفْر الجامعة قد اقتسما الناسَ لتعليلهم بالباطل ، إن لم يكن لشفائهم ، ولَمَّا يُكْتَشَفْ شىء أحسنُ من ذلك لسَوْق البشرية إلى مستقبلٍ لم يُصْنَع من أجْلها على ما يحتمل .

ولا يزال العالَم منقسماً بين التَّمَتُّعيين والمِثاليِّين ، أى بين أتباع سِفْر الجامعة وأتباع سِفْر أيوب .

وترى فى هذا العصر بعض المفكرين الذين أعياهم ذانك النَّجْدان فأخذوا يصنعون من المسائل ما كان صاحبا ذَيْنك السِّفْرَيْن العبريين قد جادلا فيهما بجُرْأة .

ولكن أين سَوْداؤنا من سَوْدائهم ؟ وما هى طِيرَتنا الحديثة التى أقدمت على توكيد العَدَم فى أيْلولَةِ الأمور البشرية كما وَكّدوا بلا التواء وكلامٍ فارغ ؟.

وأين ذلك الذى أغلق أبوابَ الأمل أمام الإنسان بحزمٍ مثلهم ؟

ولا تَصْلُح قراءة مثل تلك الأسفار ، ولولا تلطيفُ الشعور الدينىِّ لها ، ولولا اشتمال الشعر الرائع عليها ، لوجب حَصْرُها فى سِرْدابٍ عميق وتكديسُ مَدَاميك بعض الأهرام العظيمة فوقها منعاً لسماع صوتها المؤلم ودرءاً لتعطيلها قلبَ الإنسانية المُسِنَّةِ العاجزَ .

على أن ذلك السِّفْر العجيب المُوجِعَ ، سِفْرَ أيوبَ ، يُعَدُّ من أنفس الآثار التى نشأت عن النفس البشرية .

ولذلك السِّفْر صورةُ روايةِ إشيل الفاجعة ، بَيْدَ أن هذا الشاعر اليونانىَّ لم يُحَلِّق طويلَ زمنٍ فى سماء عالية ، ولا تَجِدُ أثراً ، مهما سَمَا ، قد أبْدَى وَحدةً أتمَّ مما فى ذلك السِّفْر .

وفى تلك الرواية المحزنة تَجِدُ خمسةَ أبطال : أيوبَ وأصحابَه الثلاثَ والربَّ .

ولا نتكلم عن أَلِيهُو الذى لم تَعْدُ جميعُ أقواله حَدَّ التَّحْشِيَات التى دُسَّت بعد زمنٍ كما هو ظاهر ، وذلك تلطيفاً لصِبغة السِّفْر الفاجعة التى يَتَكلف معها أَلِيهُو تكلفاً مطلقاً .

وأيوبُ هو الرجل الذى يَأْلَم ويسأل : لماذا ؟ والأصحاب الثلاثة هم ممثلو المذهب الإسرائيلىِّ المعروف الذى يَزْعُم أن يَهْوَه يكافئُ الأبرارَ ويجازى الأشرار ، وأن كلَّ ألم يفترض ذنباً سابقاً .

ولم يَجِدْ أيوبُ عُسْرًا فى إبطال ذلك المذهب ، حتى إنه ذهب إلى أقصى العكس فى سَوْرَة غضبٍ فقال مُوَكِّدًا إن الأشرار وحدَهم هم الذين يَنْعَمُون فى هذه الحياة الدنيا .

فقد قال صارخاً : « لماذا يَحْيَا الأشرارُ ويَشِيخون ؟ ولماذا يَعْظُم اقتدارُهم ؟ نَسْلهم قائمٌ أمامهم وأعقابُهم لدى أَعْيُنهم . بيوتُهم آمنةٌ من الفَزَع وقضيبُ الله لا يعلوهم » .

ولَمَّا طال الحِوَارُ بين أيوبَ وأصحابه بما فيه الكفاية بدا الربُّ وصَرَّح بلهجةٍ شعرية ممتازة أن الإنسان هو من شِدَّة الجهل والضَّعف مالا يستطيع معه أن يسأله ، فلا ينبغى له أن يَنْفُذ سِرَّ سُبُله .

ولم تكن نتيجةُ ذلك واحدةً لاريب ، غير أنها النتيجةُ الوحيدة التى يُمْكِنُ النفسَ الدينية أن تَصِلَ إليها ، ألَا إن علم الحياة والموت الأعلى أمرٌ خفىٌّ علينا ونستطيع أن نتكلم عنه على الدوام مع أيوبَ القائلِ :

« أين تُوجَدُ الحكمة وأين مَقَرُّ الفِطْنة ؟ » .

« العُمْرُ قال : ليست فِيَّ ، والبحرُ قال : ليست عندى » .

« إنها محجوبةٌ عن عَيْنَىْ كلِّ وحِيٍ ومتواريةٌ عن طَيْرِ السماء » .

« الهلاكُ والموتُ قالا قد بلغ مسامعَنا خبرُها » .

ولا شىء يَعْدِلُ سِفْرَ أيوبَ جلالاً وجمالَ شكلٍ ، وتُناسِب لغتهُ سُمُوَّ موضوعه .

ومن العسير اقتطاعُ فِقَرٍ من هذا السِّفْر الذى يجب إيرادُه بأسْره .

والحقُّ أن الأزلىَّ إذا ما تكلم ووَصَف عجائبَ الطبيعة التى خلقها ظَنَّ المرء سماعَه صَدَى صوتٍ إلهىّ .

فقد وُصِفَت سَعَةُ الكون ورَوْعة السماء ذاتِ الكواكب وعظمةُ البحر المحيط وتنوعُ النبات والحيوانات تنوعاً لا حَدَّ له وجمالُ الخيل وبأسُها وقوةُ

النَّسْرِ وخُيَلاَؤُه وصفاً دقيقاً جزيلاً .

وتجِدُ عَظَمةً ذاتَ أثرٍ مؤثر في هـذا السؤال الذي كرره الربُّ للإنسان الضعيف الذي يسأله :

أ كنتَ تصْنَع هذه الأشياءَ ؟ أفتَعْلَمُ كيف صُنِعَت ؟

« ... أتُرْسِلِ البُرُوقَ فتنطلقُ وتقول لك نحن لديك ؟ » .

« مَنْ وَضَعَ الحـكمة في الأعصار أم من آتى النَّوْءَ الفَهْم ؟ ومَنْ يُحْصِي الغيومَ بحكمته ومَنْ يَصُبُّ زِقاق السماوات ؟ » .

« ... أأنت الذي يُؤْتِي الفَرَس قوةً ؟ . . أبحكمتك يستقلُّ البـازي في الجوِّ ويَبْسُط جَنَاحيهْ نحوَ الجنوب ؟ » .

وبَلَغَ شعرُ العِـبْريين ، الذي تركته لنا المزاميرُ وأسفارُ صِغار الأنبياء وكِبارُهم ، والقِطَعُ المنثورة في جميع أجزاء العهد القديم ، من الغِنَى في التآليف مالا نَقْدِر معه على غير تقديره بسوى أوصافه العامة .

وذلك الشعرُ غزيرٌ عالٍ ، رفيعٌ في الغالب ، خَصِيبٌ في الصُّوَر ، ذو بلاغةٍ مُؤَثِّرة .

ولم تـكن الموضوعاتُ الدينيةُ مصدرَ الإلهام الوحيد فيه ، ففيه تنويهٌ بالخمر والنساء والحرب ، غير أن أناشيدَ التقوى هي التي جُمِعَت وَبَقِيَت لنا .

ونَعُدُّ من أقدم الشعرِ العِبْريِّ أغْنِيَةَ حرب دَبُورَه التي تُوجَدُ في سِفْر القضاة .

وتَرجِـع المزاميرُ إلى أدوارٍ مختلفة ، أجَلْ ، إن داود الذي عُزِيَتِ المزاميرُ إليه طويلَ زمنٍ كان شاعراً ممتازاً لا ريب ، بَيْدَ أنه يستحيل أن نَعْرِفَ بين الأغاني العِبْرية أيَّ المزامير من صُنْعِه ، والمزمورُ الوحيد الخاصُّ به هو النشيد

الحزن الذى وَضَعه بعد موتِ شاوُلَ وَيُوناتان على التحقيق .

والشعرُ الإسرائيلىُّ الغِنَائىُّ ذو رَوْعَة كبيرة ، وهو فى تعبيره وفى وَحْيِه العامِّ أفضلُ من القصائد الحربية أو الدَّلالِيَّة لدى الساميين الآخرين ، حتى لدى العرب .

والشعرُ الإسرائيلىُّ لم يُؤَلَّف من أبياتٍ بالمعنى الصحيح ، بل يشتمل على إيقاعٍ خاصٍ ناشئٍ عما يُسَمَّى بموازنة الأجزاء .

ويُقَسَّم كلُّ دور فى الشعر العِبرى إلى جُزْأَىْ جملةٍ مشتملتين على الفكر الواحد المُعَبَّرِ عنه بكلمات متماثلة تقريباً ، وذلك على وجهٍ يُسْمَع به صدى الجزء الأول فى الجزء الثانى ، وهـذا الصَّدَى ذو أثر مُؤَثِّر فى الأذن وفى الفكر معاً .

وإليك مثالاً ، إليك قطعةً من المَزْمُور المئة والثانى العجيب :

« الربُّ رَءوفٌ رحيمٌ طويلُ الأَنَاةِ وكثيرُ الرحمة » .

« ليس على الدوام يسْخَط ولا إلى الأبد يَحْقِد » .

« لا على حسب خطايانا عامَلَنا ولا على حسبِ آثامنا كافأَنا » .

« بل بمقدار ارتفاع السماء عن الأرض عَظُمَت رحمتُه على الذين يَتَّقُونه » .

ولا تَجِدُ عند العرب ، ولا عند الساميين الآخرين ، موازنةَ الأجزاء تلك الخاصةَ بالشـعراء العِبْريين والتى هى من مُمَيِّزاتهم ، وتَجِدُهـا ، بالعكس ، فى بعض الآثار الأَكَّادِيَّة القديمة إلى الغاية ، وفى هذا دليلٌ جديد على إقامة سامي الشمال بما بين النهرين وعلى اقتباس اليهود لموازنة الأجزاء تلك من كَلْدة .

إذَنْ ، لم يكن تَفَتُّح الآداب العِـبْرية الرائعُ ذلك أمراً غريزيًّا ، بل يرتبط بشكله ومبادئه الدينية فى بيئةٍ ثقافية شرقية قديمة جِدًّا .

والعبقريةُ السامية إذا ما تُرِكَت وحدَها لم تَبْلُغ مثل ذلك السُّمُو ، وروحُ السامىِّ تشابه جسمَه الجافَّ العصبىَّ ، فهى جَلِيَّةٌ رشيقةٌ لَبِقَةٌ مع قلةِ عُمْقٍ وقَفْرِ خَيال .

وما أَبْصِرَ من أمورٍ فيما مضى ، وما سُمِعَ من أقوالٍ فى غضون القرون القديمة على ضِفاف الفرات ، فقد مازَجَا بنى إسرائيلَ فى جميع تاريخهم .

وفى كَلْدَة اتفق لبنى إسرائيـلَ ذلك التعطشُ إلى معرفة بَداءةِ كلِّ شىء ونهايتِه ، أى حبُّ الاطلاع الضارى الذى كان يُؤْلم قدماءَ المجوس .

والإسرائيلىُّ لو بَقِى تحت خيمته فى سهوبِ جزيرة العرب النَّمَطيَّة ما وَجَدَ من النَّبَرات ما يزعزع به العالَم ويقْنعه ويُولِعه .

ولم يكن أنبياء اليهود منصفين نحوَ بابل .

ويُنْبِئ إشَعْيَا بخراب بابلَ فيَصْرُخ قائلاً :

« ستأتى عليكِ كلتا المصيبتين : الثَّكَلُ والتَّرمُّل ، فيُتِمَّان عليكِ مع أنواعِ سِحْرِكِ وقوةِ رُقَاكِ الكثيرة » .

« قد وَثِقْتِ بخُبْثكِ وقلتِ لايرانى أحد ، إن حكمتكِ وعِلْمكِ هما أفتناكِ فى قلبكِ أنا وليس غيرى » .

« امْكُثِى على رُقَاكِ وأنواعِ سِحْرِكِ الذى عنُيتِ به منذ صِبَاكِ . . . »

« فليَقِف راصدو السماء الناظرون فى النجوم المعروفون عند رؤوس الشهور وليُخَلِّصوكِ مما هو آتٍ عليكِ » .

وتلوح تلك السُّخْرِيَةُ قاسيةً فى فَمِ أحد أولئك الشعراء اليهود الكِبَار المَدِينين كثيراً لكَلْدَة .

ويشابه أسمى تَفَتُّحات العبقرية البشرية أزهارَ الشجر التى تستمدُّ جمالَها ونَضَارتَها ونَوْرَها من جـذورها الشود البعيدة المطمورة فى التراب المظلم ، ويتطلب نشوء الشجرة سنواتٍ طويلةً وتتفتح الزهرةُ فى يوم واحد ، وليس من الحقّ أن تَزْهُوَ الزهرة فتستخفّ بالفَنَن الخشِن الذى يَحْمِلُها والذى لا تَكُونُ بغيره .

ونحن ، أولاء الذين يكونون أمام أروع المطولات فيَسْعَوْن فى الرجوع إلى العالم الوضيعة ، نُبْصِر أمرين وراء رَوْعة القصائد العِبْرية .

نُبْصر الخيْمة فى البادية صغيرةً تِجاه الآفاق النَّمَطيَّة التى لاحَدَّ لها ، ثم نُبْصِر ، على ذُرْوَة معابد كَلْدَة ، المجوسىَّ المفكرَ وهو يحاول استخراجَ سرّ مصايرنا من السماء الصامتة .

فذِكْرَى الخيْمةِ الوضيعة وذِكْرَى المعبد المتكبر قد عَظَّمتا مقدار الأحلام التى سَحَرَتِ الإنسانيةَ حين أوحتا إلى الشاعر اليهودىّ .

فهرس الموضوعات

للأستاذ المترجم :

(١) حضارة العرب (طبعة ثانية)	للدكتور غوستاف لوبون
(٢) حضارات الهند	» » »
(٣) روح الجماعات	» » »
(٤) السنن النفسية لتطور الأمم	» » »
(٥) روح التربية	» » »
(٦) حياة الحقائق	» » »
(٧) الآراء والمعتقدات (طبعة ثانية)	» » »
(٨) روح الثورات والثورة الفرنسية (طبعة ثانية)	» » »
(٩) روح الاشتراكية	» » »
(١٠) روح السياسة	» » »
(١١) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى	» » »
(١٢) بسمارك	لإميل لودفيغ . . .
(١٣) نابليون	» » . . .
(١٤) ابن الإنسان	» » . . .
(١٥) الحياة والحب	» » . . .
(١٦) حياة محمد (طبعة ثانية)	لإميل درمنغم . . .
(١٧) تاريخ العرب العام	لسيديو . . . . . .
(١٨) أصول الحقوق الدستورية	لإيسمن . . . . . .

[رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٥١٦٢ / ١٩٧٠]

